

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٤٣ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ السنة الحادية والثلاثون

لغة الخطاب الدعوي



د. بشير عبد الله المساري

بشير عبد الله علي المساري

* من مواليد اليمن.

* دكتوراه في اللغة العربية، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم.

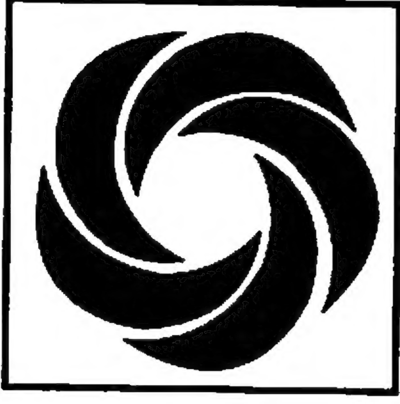
* يعمل مدرساً في جامعة صنعاء.

* عضو لجنة تطوير المناهج التربوية في مجال (النحو والصرف).

* عضو مؤسس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

* له عدد من المؤلفات.. منها:

- تحفة الأحباب في شرح ملحة الإعراب، في النحو والصرف، دراسة وتحقيق.
- دليل المعلم الناجح.
- رحلة قبل الرحيل.



كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر
ص.ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. دعوة لمراجعة لغة الخطاب الدعوي في ضوء الوحي الإلهي، في الكتاب والسنة، وأساليبه وتنوعاته بما يلائم مقتضى الحال، وبيان دور اللغة العربية، التي تعتبر الوسيلة الأهم في الخطاب الدعوي كأداة تفاعل وتفاهم وتعاون، وقدرتها التعبيرية وأساليبها المتنوعة وبيانها المشرق عن القيم الشعورية.

فاللغة بكل مكوناتها ومفرداتها ومترادفاتها وتنوع ضمائرها مجال رحب لسياحة الفكر وحركة العقل وصياغة الأسلوب المناسب، فهي رافعة التفكير ومحرك العقل وآسر القلوب ومفتاح الشخصية؛ ولعل العربية، وعاء الرسالة الخاتمة، بما تمتلك من خصائص وميزات، تقدم لكل إنسان في كل زمان ومكان من الإمكانات الكبيرة ما يجعلها الوسيلة الأهم للخطاب.

فالقرآن، كتاب العربية الخالد ولسانها المعجز، هو خطاب الدعوة ووسيلتها المؤثرة على مر العصور؛ والجهاد بالقرآن من أعلى أنواع الجهاد؛ لقد كانت وسيلة الدعوة والمجاهدة تقتصر على تلاوة القرآن على تجمعات الناس؛ وكان الخوف من أثر القرآن في التغيير يدفع الكفار إلى التشويش والشغب واللغو.

ويبقى الخطاب اللغوي الدعوي بشكل خاص والخطاب الدعوي بشكل عام ملفاً مفتوحاً قابلاً للمراجعة والتقويم والإبداع وترقية الأداء، كما يبقى الوحي الإلهي في الكتاب والسنة والسيرة، مصدر الدعوة الأول، محل الارتكاز ومجالاً لاكتشاف أبعاد الخطاب وأنواعه وأجناسه، ومحل الاقتداء بالأنبياء، واستلهام تجربتهم في التعامل مع المجتمعات في أعمارها الحضارية المتعددة.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Isiam.gov.qa
البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

لغة الخطاب الدعوي

د. بشير عبد الله المساري

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣٢هـ

نيسان (إبريل) – أيار (مايو) ٢٠١١م

بشير عبد الله المساري

لغة الخطاب الدعوي

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١١م.

١٩٢ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٤٣)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠٦ / ٢٠١١

الرقم الدولي (ردمك): ٦ - ١٤ - ٩٢ - ٩٧٨٩٩٩٢١

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشـــر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها



تليفون :٤٤٥٠٠٠٢٧/٢٨ ٩٧٤+ - فاكس : ٤٤٥٠٠٠٢٩ ٩٧٤+

ص.ب: ٣٥٠٤ الدوحة - قطر

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا
فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

(فصلت: ٤٤)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله الرحمن، الذي خلق الإنسان، علمه البيان، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ...﴾ (الرحمن:١-٤)، وبهذه القابلية والقدرة التي منحها الله الإنسان على البيان والتي ميّزه بها مكّنه من الإفصاح عما في نفسه، وأمكنه من القدرة على التفاعل والتفاهم والتواصل وقراءة الحياة والتعبير عنها مع الآخرين.

فلقد جعل الله الكلمة واللغة والبيان هي نقطة الانطلاق وبدء الحياة والحركة وبناء الحضارة وإقامة العمران وتحقيق الاجتماع البشري؛ فهي مفتاح الحياة ووعاء الفكر ووسيلة الإقناع، ففي البدء كانت الكلمة، كما ورد في بعض الأسفار الدينية، وفي بدء الخلق: كان التعليم والتعلم وأداته اللغة، فقد علم الله آدم، أصل الإنسان وأبا البشر، الأسماء كلها (اللغات)، وكانت هذه الميزة للإنسان وراء مقدرته على الاختيار والانتقاء والتفكير والتعبير والتعلم والكسب المعرفي، وكانت السبب في الطلب إلى الملائكة السجود لهذا الخلق، على الرغم مما يحتمل الكسب الإنساني من فعل الإفساد وعمل الإصلاح، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا....﴾ (البقرة:٣١)، ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ....﴾ (البقرة:٣٤)، ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

والصلاة والسلام على إمام البلاغة والفصاحة والبيان، الذي أُعطي جوامع الكلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ** » (أخرجه مسلم)، والذي كانت معجزته، التي تحققت من خلال عزمات البشر، عقلية ثقافية بلاغية بيانية، وكانت مهمته الأساس البيان لمعطيات الوحي وتكاليفه، بكل أشكاله وأجناسه وأنواعه، يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ...﴾ (العنكبوت:١٨)، ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ....﴾ (النحل:٤٤)، وكان هذا الإنزال (القرآن) بحروفه المتعددة المتنوعة بكل ما تحمل من آفاق وأبعاد بيانية ومفتاحية لكل المغاليق البشرية «**أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**» (أخرجه البخاري)، وقراءاته العشر، المتواترة المتوافقة مع نطق العرب ولهجاتهم المتعددة، مستوعباً لحالات الإنسان المخاطَب ولهجاته كلها، ومستوفياً لطرائق وأدوات فهمه، وكأن ذلك يعني من وجه آخر أهمية إعداد الداعية واستيفائه لوسائل وأساليب ومفردات وأجناس واستحقاقات الخطاب، الأمر الذي يُعتبر من الأبجديات الأولى لتحقيق النجاح في مهمته الدعوية، وبناء أهلية مخاطبته للناس، وقدرته على التأثير والتفاعل معهم، فاللغة بكل أساليبها مفتاح الشخصية، بكل مكوناتها، عقلاً ونفساً ومشاعر وعواطف وإحساساً وإدراكاً.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الثالث والأربعون بعد المائة: «لغة الخطاب الدعوي» للدكتور بشير عبد الله المساري، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، في سعيها الدائب للاضطلاع بمهمة النهوض بأدوات التوصيل وحسن البيان لمعطيات الوحي، في الكتاب والسنة، والارتقاء بوسائل الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد، ومعاودة إخراج الأمة، واسترداد خيريتها، وبناء وسطيتها، وتحقيق شهادتها على الناس بإبلاغهم وحي الله، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾ (البقرة:١٤٣)، وتخليص الناس من عبودية العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة؛ وتلك هي المهمة الكبرى التي عملت لها النبوة على تاريخها الطويل، وعمل ويعمل لها من بعدها ورثة النبوة والكتاب من العلماء العدول، في كل زمان ومكان، الذين يحملون أمر هذا الدين «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدُولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**» (أخرجه البيهقي)، يبلغونه الناس وينفون عنه نوابت السوء.

والأمر الذي نحب له أن يكون واضحاً ابتداءً أن وراثة النبوة، والقيام بأمر الدعوة إلى الله، والاضطلاع بمهمة البيان تعتبر من أعلى المهام، وأعظم المسؤوليات، وأثقل الصناعات، وأصعب المشاق لمن يدرك أبعادها، ويقدِّر آثارها، ويستوعب ما يترتب عليها من ثواب، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ

﴿أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣)، ويستوعب أيضاً ما تتطلبه هذه المهمة من المؤهلات والقدرات وتستلزمه من الخصائص وبناء المهارات.

فأنبياء الله جميعاً، الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لإبلاغ رسالته وصنعهم على عينه، أدركوا عظم المهمة وما تتطلبه من إعداد واستعداد وما يعرض لها من مواجهات: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥)، ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (الإنسان:٢٤)؛ فسيدنا موسى، عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل والذي صُنع على عين الله ورعايته ﴿... وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ (طه:٣٩)، توجس خيفة بطبيعته البشرية في أكثر من موقف، وطلب إلى الله أن يشد عضده بأخيه هارون؛ لأنه أفصح منه لساناً وأقدر بياناً؛ مخافة أن يُكذب ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا...﴾ (القصص:٣٤)، ذلك أن الفصاحة وقوة الحجة والبيان هي المرتكز الأساس في الدعوة وتحصل الإقناع عند المتلقي.

ولقد آتى الله داود وسليمان، عليهما السلام، الحكم والحكمة وفصل الخطاب والقدرة على مخاطبة جميع خلق الله والتفاهم والتفاعل معهم، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ...﴾ (ص:٢٠)، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ...﴾ (سبأ:١٠).

وجاءت النبوة الخاتمة بجماع الأمر كله، وتميز الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم، وليس معنى جوامع الكلم -فيما نرى- القدرة على جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة فقط، وإنما امتلاك القدرة على الإحاطة بالفضاء المعرفي بأحوال الإنسان وحالاته وتقلباته، واختيار الخطاب الملائم الحكيم المؤثر في شخصيته، الموافق للهجته، القادر على تغيير حاله، وتحقيق انفعاله وتفاعله وانتقاله من الكفر إلى الإيمان؛ وليس نزول القرآن على سبعة أحرف -كما أسلفنا- وقراءاته العشر إلاّ إشارة ولو ضمنية إلى بعض أبعاد مستلزمات الدعوة واستحقاقاها وبعض خصائص النبوة، محل القدوة، في دعوة الناس إلى مقاربة جوامع الكلم، التي كانت من خصائص النبوة الخاتمة.

ولعلنا نذكّر هنا: أن الوسيلة الأهم في الإقناع والدعوة إلى الله في النبوات السابقة كانت المعجزات المادية، التي قد يتساوى الناس، على فوارقهم الفردية، في الإحساس بها، وقد يكون في ذلك الكثير من الحكمة الإلهية، ذلك أن تاريخ الإنسان مر بأطوار متعددة ومتعاقبة قبل بلوغ سن الرشد؛ أطوار كان يغلب عليها الإحساس بالأمور المادية ويغيب عنها بأقدار متفاوتة الإدراك والقدرة على التجريد، حتى إذا ما وصل الإنسان إلى طور الرشد، بتأهيلٍ من النبوات السابقة، جاءت معجزة الرسالة الخاتمة عقلية فكرية بيانية بلاغية تجريدية خالدة، مجردة من حدود الزمان والمكان، تحاكي كل إنسان في كل زمان ومكان،وكانت اللغة العربية وسيلتها الرئيسة.

إن اختيار أن تكون المعجزة الخاتمة عقلية بيانية بلاغية لغوية، تعتمد الإبانة والفصاحة والبيان ومخاطبة العقل سبيلاً للتفاهم والتفاعل والتعبير، له أكثر من

مغزى، فاللغة والبيان هي مفتاح شخصية الإنسان، بل هي الإنسان، بكل فاعلياته، فجميع أنواع الكسب والإنتاج البشري من علوم وفنون وصناعات وتبادل الخبرات كان لا يمكن له أن يكون بدون اللغة، وسوف يصاب بالعطالة والبكم والصمم والجمود والمحاصرة لولا اللغة.

واللغة، بأبعادها المتعددة وآثارها الفاعلة، ليست اللسان فقط، وإنما هي الهوية والوطن وتواصل التراث ومكوّن الشخصية والذاكرة ومبعث الفاعلية والتأثير ومحركات التفكير.

واللغة كسبية تعليمية، وهي الميثاق والحبل الرابط بين الناس، ومشكِّل النسيج الاجتماعي للحياة الإنسانية، تميِّز الإنسان عن سائر الخلق (فهو الحيوان الناطق) وتؤكد قدرته على الاختيار، وليست اللغة قسرية إجبارية كاللون والجنس والقوم لا يد للإنسان في ممارستها، دفعاً أو رفعاً، كحال سائر المخلوقات، التي تحاكي أصوات الطبيعة.

وهذه القدرة على الاختيار تعني -فيما تعني- إمكانية الإنسان على حسن اختيار أسلوبه ومفرداته واختبار مدى ملاءمتها للحال الذي يعالجها، وتحقيقها للهدف الذي يرمي إليه.

فإذا كان تعريف البلاغة هو: مطابقة الكلام لمقتضى الحال أدركنا أهمية معرفة الداعية، صاحب الخطاب اللغوي، بحال المخاطَب ومشكلاته ومعاناته وحاجاته وأهمية اكتشاف أزرار شخصيته ومكوناته والعوامل المؤثرة فيه، وأدركنا أيضاً ما هو الأسلوب الأمثل للتعامل معه، وخصائص الخطاب المطلوب الملائم لحاله.

وإذا كان بعض تعريف الحكمة: وضع الأمور بمواضعها، ووزنها بموازينها: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ (النحل:١٢٥)، وتلك هي عملية كبيرة وشاقة وغاية في الأهمية، أدركنا أهمية تحري الحكمة والعمل على إصابتها في العمل الدعوي.

وليست الدعوة بالحكمة أمراً ساذجاً وعفوياً وارتجالياً، كما أنها ليست فهلوة وقدرة على زلاقة اللسان والتمتع برفع الصوت والقدرة على إثارة الحماس...

إن الدعوة إلى الله علم ومعرفة وسلوك وقدرة على اختيار المفردات والأدوات الملائمة والمؤثرة.

فالخطاب الإعلامي بشكل عام، وخطاب الدعوة بشكل خاص، فن وعلم -كما أشرنا- بل لعلنا نقول: إن الخطاب الإعلامي اليوم، الذي تتبارى الأمم في بلوغه وترقيته وتعتبره ميدان المعركة الحضارية الأهم، فتحشد لذلك الإمكانات المادية والمعنوية الضخمة؛ لأنه أصبح يمثل اليوم ما يسمى «القوة المرنة»، ذلك أنهم أدركوا مدى تأثيره وقدرته على تغيير الواقع، هذا الخطاب أصبح اليوم ثمرة لمجموعة علوم اجتماعية وإنسانية ونفسية ولغوية، تُختار له الشخصية والصوت والصورة والمفردات اللغوية واللباس والجلسة والنبرة والزمان والمكان، وتوضع له الاستراتيجيات: ماذا يقدم، وماذا يؤخر، وماذا يؤجل، وتقام له الدورات التدريبية، كما يُوكل أمر تقويمه ومراجعته وتحديد مواقع الخلل فيه وبيان أسباب القصور إلى جهات محايدة علمية؛ ويكاد يكون

العمل على الارتقاء بالخطاب وقياس مدى تأثيره الهاجس اليومي للأمم في ميدان السباق الحضاري.

وليس ذلك فقط وإنما أصبح لكل خطاب مفرداته ومتخصصوه وأصوله وعلومه وأدواته، بل وأشخاصه ولغته ولهجته ومعاجمه ودورات تعليمه ومراكز تدريبه، حيث لا مجال للأغبياء والسذج، في عالم الأذكياء.

ولا تكتمل العملية الإعلامية وتبلغ مداها وتحقق أغراضها ومقاصدها ما لم يتضح هدف الخطاب، الذي يتمحور حوله، والمدى الذي يريد أن يبلغه، والنتائج التي يريد تحقيقها في هذه المرحلة، وما يستتبعها من مراحل، واختيار الأدوات والمفردات المناسبة لتحقيق هذا الهدف.

وليس ذلك فقط، وإنما المهم أو الأهم أيضاً معرفة حال المخاطَب ومكوناته وتاريخه وعقيدته، التي يدين بها، وتحديد أعمار النقلة المطلوبة له، ووسائل إغرائه بالتفكير، واستدعائه إليه، والاقتناع بضرورة التحول للارتقاء بالواقع وتغيير الحال.

ولعلنا نقول هنا: إن الدعوة إلى الحكمة المطلوبة والتي تحكم الخطاب الدعوي والتي تتطلب وضع الأمور بمواضعها ووزنها بموازينها، والبلاغة التي تقتضي مطابقة الكلام لمقتضى الحال تعني -فيما تعني- تحديد هدف الخطاب، وحال المخاطَب، وأسلوب الخطاب ومفرداته، وموضوع الخطاب.

فالدعوة وأساليب البلاغ المبين للوحي الإلهي مشروطة بالحكمة والموعظة الحسنة والمدافعة بالتي هي أحسن، ذلك أن غياب أي عنصر من هذه العناصر لا يعني فشل العملية الدعوية فقط والحراثة في البحر وطحن الماء وإنما المساهمة

السلبية في إنهاك وإجهاض قيم الوحي في الكتاب والسنة وإحباط العمل وتنفير الناس.. فمخاطبة الناس على قدر عقولهم، والأخذ بيدهم، وليس الأخذ على يدهم، والتدرج في إبلاغهم الحق، وأطرهم عليه هو الحكمة المبتغاة؛ ذلك أن الكثير من الدعاة إنما يظهرون وكأنهم وُظّفوا لتهريب الناس وتنفيرهم من دين الله، وقد لا يكون مستغرباً أن يدخل ميدان الدعوة كل من هب ودب، كل من تأهل ومن لا أهلية له.

فالحكمة أن نُخاطِب الناس على قدر عقولهم، حتى لا يُكذّب الله ورسوله؛ وهذه الحكمة تتطلب الإحاطة بحال الناس ومستواهم، كما تقتضي معرفة أسلوب الخطاب -كما أسلفنا- واختيار المفردات الملائمة لهم.

أما الجنوح إلى خطاب التقعر واللجوء إلى الغموض والرصف الكلامي والأسلوب المسجوع المصنوع بعيداً عن ألف الناس فلا يحقق شيئاً؛ وليس أقل من ذلك خطورة أن يأتي الخطيب بالمفردات والمصطلحات اللغوية والأساليب التهديدية والتخويفية، التي تخص الكافرين والمنافقين وتحذرهم من مغبة سلوكهم، ويصبها فوق رؤوس المؤمنين الموحدين المصلين المقبلين على بيوت الله!

وعلى الرغم من أن الإنسان والعالم في تغير مستمر ومتسارع وأن لكل عصر مشكلاته وقضاياه وأهمية اختيار المفردات والمصطلحات، التي تناسبه، نجد في كثير من الأحيان الخطاب الدعوي أو الإعلامي الإسلامي اليوم، في معظمه، يعاني من غربة الزمان والمكان، فقد يأتي الخطيب بأمور وخُطبٍ جاهزة تخص زمناً غير زماننا، وتعالج مشكلات غير مشكلاتنا، ويلقيها على الجماهير المسلمة

في المساجد والمنتديات ودروس الوعظ والإرشاد، فيكون هو في واد والمتلقين في واد آخر؛ وقد تُجهد نفسك -كمستمعٍ- كثيراً لتحدد الزمان، الذي قيلت فيه، والمجتمع الذي أُعدّت له، أو ملامح المجتمع الذي تخاطبه، فلا تصل إلى نتيجة(!)

وإذا نزعت التاريخ المدون على كثير من صُحفنا ومجلاتنا الدعوية لصعب عليك نسبتها إلى عصر معين؛ فكيف والحال هذه أن تُوصف بالحكمة والموعظة الحسنة وقد طلقت ذلك كله طلاقاً بائناً؟! إنها تعاني من غربة الزمان والمكان أيضاً.

وليس ذلك فقط، وإنما قد يمتد الأمر إلى الاستهتار والاستهانة بعقول الناس وملكاتهم.. وتبلغ الجراءة ببعض الخطباء أن يصعد منابر الخطابة دون أن يفكر مسبقاً بما يقول، ولماذا يقول، ومن يُخاطِب، ومدى ملائمة ما يقول لأحوال الناس وحاجاتهم(!)

وقد يهون ذلك من بعض الوجوه، إذا كان مجال الخطاب عاماً، لكن الخَطْب يعظم أكثر فأكثر عندما يكون مجال الخطاب ومحله مؤتمراً محدد الموضوع ومقسم المحاور ومخصَّص المجالات، ومع ذلك يأتي بعض المشاركين بكلام قد لا تكون له علاقة بعنوان المؤتمر ولا بموضوعه ولا بمحاوره ولا بالجانب المطلوب منه معالجته، ويقدم خطبة عصماء تصلح لكل المؤتمرات والمناسبات والمواقف، مهما اختلفت أزمانها وتعددت عناوينها وتنوعت محاورها، ومع ذلك- ولعل ذلك من لوازم التخلف- تتم دعوته لكل مؤتمر وكل ندوة؛ لأن مؤتمراتنا تحولت إلى مؤتمرات سياحية يرتادها محترفون، بعيدة

عن أية جدوى وتقويم ومراجعة، وغالباً ما تتحكم بأشخاصها واختيارهم العلاقات والصلات والحزبيات وليس الكفاءات والإمكانيات.

فإذا كان واقعنا بهذا الشكل فمن أين لنا النهوض وحسن الأداء؟

لقد عقد اليهود مؤتمراً في بازل في سويسرا وقرروا العمل على إقامة دولة بعد خمسين سنة، فقامت الدولة في الموعد المحدد، وعقدنا آلاف المؤتمرات والندوات فجاء الحصاد هشيماً؛ كنا دولة فأصبحنا دولاً، والخطباء هم الخطباء؛ والتوارث الاجتماعي والديني لهذه الذهنية مستمر في حياتنا.

وقد تكون الإشكالية، التي يعاني منها الخطاب الإعلامي بشكل عام، والخطاب الدعوي بشكل أخص، هو في الطريقة التعليمية للغة الخطاب العربية بشكل عام ولغة الخطاب بكل علم وفن بشكل خاص؛ ذلك أن أساليب ووسائل وأدوات تعليم اللغة العربية بوضعها الحالي لا يمكن أن تنتج لغة سليمة وخطاباً ملائماً بأسلوبه ومفرداته ومصطلحاته للحال التي عليها الناس، وللموضوع المطلوب معالجته والهدف المراد تحقيقه.

وقد تكون المشكلة تاريخية؛ ذلك أنه من المعلوم أن اللغة توقيفية، المفروض أن تُتلقى بالشكل السليم على نحو معهود العرب في الخطاب، وأن الإصابات اللغوية والخلل المحتمل أو الواقع يُصوَّب ويُبيّن ويُنبَّه صاحبه عند حصوله لئلا يقع فيه مرة أخرى، أما الأصل فسيبقى أن يتلقى المتعلم اللغة سليمة، وبذلك نقرأ لنتعلم، ونتكلم لنتفاهم ونتبادل المعرفة والخبرة والمهارة، أما ما انتهى إليه أمر اللغة فأصبح العكس، نتعلم لنقرأ(!) وبذلك أصبح هناك تداخل خطير بين علوم اللغة وقواعدها وبين اللغة.

فاللغة غير علوم اللغة؛ وعلوم اللغة وسائلٌ وأدوات لحماية اللغة وليس لإنشائها، فإذا اقتصر الاهتمام والتعلّم على علوم اللغة دون أدائها تحولت سلاسة اللغة وعفويتها وبساطتها إلى قوالب وأسوار تستغرق عقل الإنسان وتفكيره وتعقد لسانه عن الانطلاق مخافة اللحن والوقوع بالخطأ، وبدل أن يفكر بعقله وتعينه اللغة على ذلك أصبح يفكر بلسانه؛ ويلوك لسانه ويتقعّر بدل أن يرسل كلامه بسهولة وانسياب إلى المتلقي.

وعلى ذلك فقد نجد كثيراً ممن تخصصوا في علوم اللغة قد لا يحسنون بناء أسلوب مؤثر أو إلقاء خطاب ذي قيمة وبلاغة وحسن بيان في أي مجال من المجالات.

ولعل ذلك التوجه إلى علوم اللغة وقواعدها إنما جاء بسبب من دخول الأعاجم وتفشي اللحن في العربية، ولهذا مسوغاته، ضمن حدوده والأسباب الداعية إليه، أما أن تتحول الوسائل (علوم اللغة) إلى غايات وتحل محل اللغة، اختصاصاً ودراسة، فالأمر سوف ينتهي إلى عجز اللغة وعقمها، والنفور منها، وسوف يؤدي أيضاً إلى انقراض علومها شيئاً فشيئاً إذا لم ندرك أن اللغة شيء وعلوم اللغة شيء آخر.

إن العدول عن تلقي اللغة السليمة مباشرة، بشتى صنوف البيان، والتدريب عليها، والاكتفاء بتصويب الخطأ حال حصوله، والتحول إلى التمحور حول علوم اللغة من نحو وصرف وعروض ... إلخ أدى إلى غياب اللغة، وأبقى على علومها، الأمر الذي انتهى إلى الخروج عليها واتهامها بالتعقيد والصعوبة والعقم عند كثير من شرائح المثقفين وانتهى إلى الانفجار صوب

العاميات واللهجات المتعددة، التي مزقت أوصال الأمة، وبعثـرت تفكيرهـا، وغيّبت جمال اللغة العربية، والإغراء بها.

وليس الأمر أقل إشكالية في مجال تعليم القرآن الكريم من حيـث تعلـم أحكام تجويد القرآن قبل تلقي القرآن بشكل سليم، وتحويّل بيان هذه الأحكام إلى ما بعد التلاوة للتصويب، حيث يسيطر على المتعلم الخوف، ويدفعه ذلـك إلى الضغط على مخارج الحروف خشية عدم الإتقان، الأمر الذي حجب الكثير من فوائد التلاوة والتدبر وحال دون جماليات وعذوبة اللغة القرآنية.

وفي تقديري أن اللغة العربية تكافح وحدها وبقوتها الذاتية وتمتد بحفـظ القرآن لها، وتستعصي عن الموت شأن كثير من اللغات التي سادت ثم بـادت؛ أولاً لأنها لسان الرسالة الخاتمة ووعاء النص الإلهي الخالد؛ وثانياً لأن أسـاليب القرآن ومفرداته تزود التالي له برصيد يضمن له التواصل الثقـافي والتـاريخي والتراثي والديني، ويمنحه قدرات وقيماً تعبيرية عن كل الاحتمالات الـشعورية والحالات النفسية.

وسيبقى القرآن الخالد، بمفرداته وأساليبه وتنـوع وسـائله في الخطـاب واستخدام وتوظيف جميع الأجناس التعبيرية كتاب العربية الخالد، الحافظ للغة، القادر على تواصل الأجيال، الحامي لنسيج الحياة الإسلامية، المانع للغـة مـن الانقراض، المثير للاقتداء.

هذا إضافة إلى أن بلاغة أساليبه وبيانه وتحديـه اللغـوي دفـع العـرب المخاطَبين، مؤمنين وكافرين، ولا يزال، ولو بأقدار بسيطة، إلى محاكاة أبعـاد المعجزة، والبحث في وجوه الإعجاز المتعددة، الأمر الذي طوّر اللغـة تاريخيـاً

وارتقى بها إلى درجة تكاد تكون الدراسات اللغوية جميعاً ما تزال تتمحور حول القرآن وإعجازه واكتشاف كنوزه.

إن خلود اللغة العربية، وقدرتها على استيعاب حركة الأمة والمعطيات الثقافية والحضارية والإنسانية، في كل زمان ومكان، والتعبير عن علومها ومنتجاتها وعلاقاتها وقيمها الشعورية إنما يتأتى من خلود القرآن الكريم، وقدرته على الإنتاج في كل زمان ومكان، وإجابته عن أسئلة الإنسان بلسان عربي مبين، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، والله الذي حفظ القرآن حفظ البيان أيضاً: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة:١٧-١٩).

فالله سبحانه وتعالى، الذي اختار العربية لتكون وعاء رسالته الخاتمة إنما اختارها لمجموعة الصفات والخصائص والمرونة والقدرة على العطاء والاستيعاب التي تتمتع بها دون سائر اللغات، وهي محفوظة بحفظ الله، لكن الحفظ إنما يتحقق من خلال عزمات البشر، فالقرآن بأساليبه ومواضيعه ومفرداته وطرائقه في التعبير ومناهجه في الخطاب سوف يبقى مصدر اللغة، ومعلمها، وحاضن أجيالها، وضامن الامتداد والتتابع؛ فالعودة للقرآن والنهل من معينه ومحاكاته ومقاربته هو الكفيل بالحفاظ على البناء اللغوي والثقافي للأمة وتمكينها من الخطاب الملائم.

ويبقى القرآن، الذي انتهت إليه أصول دعوات الأنبياء وخطابهم لأقوامهم وكيفية التعامل معهم، والسيرة النبوية وكيفية تعاطيها مع الواقع بكل متغيراته

مصدر هداية ودليل عمل لخطاب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ فالقرآن كتاب الله المنزل، ومنهجه للإنسانية؛ والإسلام دين الفطرة، والإنسان فطرة الله، والله أعلم بمكوناته وخصائصه وما يصلح له وما يفسده: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤)، وكأن بين كتاب الله المترل وخطابه للإنسان وبين الإنسان بما فُطِر عليه تواعدٌ والتقاء، وأن أي عزوف عن الإيمان وعدم الاستجابة له يعني - فيما يعني- عطباً في أدوات التواصل ووسائل الدعوة وأصول خطابها، الأمر الذي يقتضي باستمرار المراجعة والتقويم للأدوات والوسائل المستخدمة في توصيل الحقيقة وكشف خلل الخطاب الموجه للناس، وذلك أنه لانجاة للإنسان المؤمن إلا بالدعوة إلى دين الله وتبليغ الناس دعوة الله، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ (الجن:٢٢).

وهذا الكتاب دعوة لمراجعة لغة الخطاب الدعوي في ضوء الوحي الإلهي، في الكتاب والسنة، وأساليبه وتنوعات خطابه بما يلائم مقتضى الحال، ومحاولة إلقاء الأضواء على تنوع أسلوب الخطاب القرآني حسب موضوع الخطاب وأحوال المخاطَبين، وبيان أهمية اللغة التي تعتبر الوسيلة الأهم في الخطاب الدعوي كأداة تفاعل وتفاهم وتعاون ووعاء تعبير عن القيم الشعورية والمعاني المقصودة، وقدرتها التعبيرية وأساليبها المتنوعة وبيانها المشرق.

فاللغة بكل مكوناتها ومفرداتها ومترادفاتها وتنوع ضمائرها وألوان بلاغتها مجال رحب لسياحة الفكر وحركة العقل وصياغة الأسلوب المناسب، فاللغة

رافعة التفكير ومحرك العقل وآسر القلوب ومفتاح الشخصية؛ ولعل العربية، وعاء الرسالة الخاتمة، بما تمتلك من خصائص وميزات، تقدم لكل إنسان في كل زمان ومكان من الإمكانات الكبيرة ما يجعلها الوسيلة الأهم للتواصل والاتصال والخطاب.

فلقد كان القرآن، كتاب العربية الخالد ولسانها المعجز، هو خطاب الدعوة ووسيلتها المؤثرة على مر العصور، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ (القمر:١٧).

وكان الجهاد بالقرآن من أعلى أنواع الجهاد ووسائل الدعوة إلى الله، وكانت الدعوة والمجاهدة في بعض مراحلها تقتصر على تلاوة القرآن على تجمعات الناس؛ وكان الخوف من أثر القرآن في التغيير يدفع الكفار إلى التشويش والشغب واللغو حتى لا يصل إليهم سحر القرآن وقدرته على التأثير والتغيير خاصة عند أهل العربية.

ويبقى الخطاب اللغوي الدعوي بشكل خاص والخطاب الدعوي بشكل عام ملفاً مفتوحاً قابلاً للمراجعة والتقويم والإبداع وارتقاء الأداء، كما يبقى الوحي الإلهي في الكتاب والسنة والسيرة، مصدر الدعوة الأول، محل الارتكاز ومجالاً لاكتشاف أبعاد الخطاب وأنواعه وأجناسه، ومحل الاقتداء بالأنبياء، نماذج الدعاة، واستلهام تجربتهم في التعامل مع المجتمعات في أعمارها الحضارية المتعددة.

والحمد لله من قبل ومن بعد.

المقدمة

تظل الأفكار والمعتقدات بضاعة محدودة التداول حتى تجد من يحسن الترويج لها، فإذا لم يعرض صاحب الفكرة فكرته عرضاً يغري بقبول النظر فيها فإنها بضاعة مزجاة لا زبائن لها، وتبقى حبيسة السطور والصدور؛ والقيم السماوية لا تنشدها الغريزة الدافعة فتطلب لذاتها، فلم نسمع في ظل انقطاع صلة الأرض بالسماء التي سبقت ظهور الإسلام وإلى اليوم أن الناس كانوا ينشدون غذاء الروح كما ينشدون غذاء الأبدان، ويبقى التعطش إلى موارد الروح الحقيقية شعوراً مكتوماً في مكنون النفس لا يظهر بغير الأساليب الملهمة، التي تثير رصيد الفطرة وتحرك كوامنها، لذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.

ولأن الدعوة إلى دين الإسلام في كل زمان ومكان هي مهمة المسلمين وهي التفسير الوحيد لصفة الخيرية التي أعطاهم الله إياها، فإن الكثير من شروط النهوض بهذه المهمة لا تزال مفقودة ومنها إتقان الخطاب الدعوي تجاه الآخرين، ومن دون شك فإن هناك عوامل قد أسهمت في الضعف الأسلوبي للخطاب الدعوي اليوم، الذي تفاوت بين الجفوة والشدة، وبين الترقيع والتمييع، من تلك العوامل غياب فقه اللغة الدعوية، وندرة المتخصصين في هذا المضمار، وتسطيح الثقافة الدينية في المؤسسات التعليمية، وندرة التعليم الشرعي الخاص، وإن وجد فبمفردات قديمة في الطرح، عتيقة في الأسلوب.

ومع زحمة الأحداث والنوازل التي حلت بالمسلمين، والهجمة الشرسة الاستعمارية الموجهة ضد الإسلام وأهله، ترسَّب في النفوس احتقان جهادي عارم، يلهب مشاعر الأمة فتشتعل معه لغة نارية غير مرشدة من قبل شباب ثائر لا تنقصهم الغيرة على الدين، بقدر ما ينقصهم السبيل القويم في الذب عن الدين.. لم ينظروا إلى ثائرة العواطف بنظرات العقول، فجنحوا إلى

الجافي من القول أحياناً أكثر من جنوحهم إلى اللين.. أرادوا إقامة الشرع وتغيير المنكر، ولكن أحياناً بما هو أنكر، فشغل بعضهم نفسه بتحديد مواقع الناس بعداً وقرباً من الدين، وإلباسهم جلابيب التقى أو سرابيل الغي والارتداد، وظهرت الكثير من المصطلحات التفتيتية، واللغة الإقصائية، التي تفتقر في كثير من الأحيان إلى الكياسة، وقول التي هي أحسن.

إن هذا النوع من الفلتان الأسلوبي بحاجة إلى وضع ضوابط شرعية، وقواعد لغوية مرعية، تنظم أسلوب التخاطب بين المُلقي والمتلقي في ساحة الدعوة إلى الله تعالى، وتستلهم نصوص الكتاب والسنة، وتستقرئ دروس السيرة، من أجل توطين النفوس المكلومة والثائرة على منهجية ثابتة في اختيار لغة دعوية تتفق والمرجعية، وتتلاءم ومتطلبات الحياة المعاصرة ومقتضياتها.

إن اللغة عوالم وأسرار، ولها في مجال الدعوة خصوصية ليست لغيرها من المجالات، وهي من الدقة بحيث من لا يتضلع بها ربما واجه عواقب الخذلان، ووقع في محاذير شرعية ودعوية، ومن كانت اللغة نقطة ضعفه فلا يأمن أن تقوده نحو مساقات تكون فيها هلكته، ويكون على الناس طليعة فتنة بدل أن يكون دليل هداية.

وإذا كان من المعلوم، عند الأصوليين، أن اللغة أحد مصادر التشريع لأهميتها، لزم أن يكون معلوماً لدى الشباب المسلم، أن اللغة في قيادة الناس إلى الله أساس النجاح، وبفقه اللغة وقواعدها وأساليبها، يمكن الوصول إلى تحقيق مقاصد الشرع في المجالات التي نريد، وبالقليل من الأخطاء.

من هنا أقدم هذا الكتاب كمحاولة تنظير لخطاب لغوي جديد، قد يبعد هذا الجهد أو يقرب من المساقات الواجب إحاطتها، ولكنه لن يخلو من موجِّهات لغوية واضحة، ومحددات أسلوبية مؤصلة، على أمل أن يسهم في تحريك الفعل الدعوي بآلية جديدة، ونفس جديد، مواكبة لمستجدات العصر ومتغيرات الأحداث، لعلنا نصل إلى أجلِّ النتائج بأقل التكاليف، وتلك هي الغاية التي نصبوا إليها.

جماليات اللغة الدعوية

أولاً: اللغة محور الدعوة:

١- الدلالات المعجمية:

اللغة في القاموس: أصْواتٌ يُعَبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغْراضِهِم، ج: لُغَـاتٌ، وهي فُعْلَةٌ من لَغَوْت أي تكلّمت[1] والمراد: مجمل النشاط اللغـوي الإبلاغـي الذي يتم بدرجة أساسية بواسطة اللسان ولذلك تسمى مجازاً (اللسان).

«الخطاب» لغة على وزن فعال من خاطب، ومصدره خطاب، ومُخاطبة، على وزن مفاعلة ومعناه الكلام والمحادثة، ومراجعة الكلام والمشاورة فيه، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان.

و«الخطاب»: رسالة ذات هدف ودلالة، وهو كلام، منطوقاً أو مكتوباً، يمثل وجهة نظر محددة من الجهة التي توجّه «الخطاب»، ويفترض فيه التأثير في السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف والملابسات، التي صـيغ فيها الخطاب بدلالة الزمان والمكان.

ويستعمل لفظ «الخطاب» اصطلاحاً بمعان شتى، تختلف تبعـاً لطبيعـة الموضوع الذي ينصب عليه الخطاب، وتبعاً للأغراض التي يتوخى تحقيقها منه، ففي التشريع والقضاء تعني «بلاغة الخطـاب» أن يؤسـس علـى البرهـان

---

(١) الفيروزبادي، القاموس المحيط، (مادة- لغا) .

الاستدلالي، على النحو الذي يحدده المنطق، وفلسفة التشريع، والأيديولوجية المتبناة في صياغة التشريعات، وفي أحكام القضاء. ومعنى هذا أن «الخطاب» يتجاوز الشكلية اللغوية، ويمتد إلى وسائل الإقناع ونوعية البرهان وأدوات الأسلوب البياني.[1]

«الخطاب الدعوي»، نسبة إلى (دعوة)، دَعا يَدْعُو دَعْوة بالفتح، والمراد الدعوة إلى الله تعالى.

٢- مكانة اللغة في الكتاب والسنة:

- تعد اللغة أداة التواصل البشري الأولى، ولا يتصور حياة بدونها، إنها آية من آيات الله، يُذكِّر الله عباده بها بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢). والمراد بالألسنة هنا: اللغات الإنسانية، وبعض المفسرين توقف عند هذا المعنى، قال الجزائري: «أي لغاتكم من عربية وعجمية والعجمية بينها اختلاف كثير»[2]، ولا يوجد ما يمنع تعديه إلى المواهب والقدرات المختلفة بين إنسان وآخر، من حيث أساليب التوصيل ومهارات الإبلاغ.

والله إذ خلق الإنسان علمه البيان، كأداة لازمة من أدوات التطور البشري، تسبق النشاطات الإنسانية: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢

(١) انظر: سعيد إسماعيل علي، الخطاب التربوي الإسلامي، سلسلة «كتاب الأمة»، العدد(١٠٠)، ط١ (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية) من المقدمة.

(٢) جابر بن موسى الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط٥ (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ٤/١٧٠.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرّحمن:١-٤)، جاء في أضواء البيان: «(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في الضمير»[١].

وفي الآية نلحظ تلازماً دلالياً بين تعلُّم القرآن وتعلُّم البيان، فكما أن إتقان القرآن والمهارة فيه يأتي بالتعلُّم، فإن الأمر كذلك مع مسألة البيان، فلابد من تعلمه وإجادته، وقد كانت اللغة العربية الفصحى تُنطق بالسليقة في عصر الاحتجاج اللغوي، أما اليوم فإن التوظيف السليم للغة، وحسن الإلقاء، يحتاج إلى تعلم ودربة واكتساب مخزون وافر من المفردات اللغوية، التي تعين المُلقي على نقل الأفكار بسهولة ويسر.

إن القدرة على الإبانة وحسن التوظيف اللغوي شرط الموجِّه الناجح؛ وإن رفع مستوى التواصل يأتي أيضاً من خلال اللغة الدالة الواضحة، وبغير ذلك تضيق دائرة الاتصال وقد تغلق، وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم أنه فصيح بليغ معجز، وتشمل فصاحته متانة المبنى وقوة المعنى، وأنه إلى جانب ذلك (مُبِين) (مُفَصَّل) (غير ذي عِوَجْ)، أي لم تكن الفصاحة مقصودة لذاتها، بل مع كونه بليغاً هو أيضاً واضح، سهل المتناول، قريب المأخذ، مع تحقق كمال الحجية فيه.

وقد أرسل الله الرسل يدعون الناس إلى الله معززين بقوة الكلمة، وكان محور نشاط الدعوة ابتداء هو الخطاب النظري المشفوع بالحجة الباهرة،

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار للفكر، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥م) ٥/٥٨.

والمعجزة الظاهرة، والسلوك التطبيقي المشفوع بالمثالية والتجرد: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٦٥)، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾ (البقرة:٢١٣)، ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام:٤٨).

وقد شرع الجهاد لإزالة موانع الوصول إلى الناس، وكان سببه وجود الجبابرة المستبدين الذين عطلوا دور الكلمة، ومنعوا إقامة الحجة على الناس، ومتى أمكن إطلاق دور الكلمة وشقت طريقها إلى الناس انتفت الحاجة إلى حمل السيف، ولم يكن القبول بدفع الجزية ممن لم يُسلِم عن يد وهو صاغر إلا رمز تحقق الغلبة الدعوية بعد أن صار الطرف الأضعف، فلا القتال ولا الجزية مطلوبان لذاتهما، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**»(١).

وقال الله عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢) أي بالقرآن الكريم.

فاللسان ركيزة الدعوة الأولى، وهو المسؤول عن النفاذ إلى أعماق القلوب وأغوار النفوس، وقد يغني عن السيف ولكن لا يغني عنه السيف.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، رقم (١٢٥٧٧)؛ أخرجه أبو داود وغيرهما، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وبما أن نطاق دور الكلمة أصبح اليوم أكثر اتساعاً بل وأكثر إنتاجية وتأثيراً في جمهور المتلقين، فإن التعويل على دورها يقع في المقدمة، وأما القصور الظاهر في الدعوة إلى الله بالكلمة فمرده إلينا نحن المسلمين بشكل عام، والعاملين في حقل التوجيه الدعوي بشكل خاص، و لم يكن ذلك ليحدث لو لم نتحول إلى نقاط فراغ محتلة بثقافة الآخرين، فتراجع دور الأمة في القيام بأمانة التبليغ التي حمَّلها الله إياها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

إن جهل الأمة بنفسها ودورها في معادلة التدافع الحضاري وقدرتها على المبادرة والتأثير هو آفتها اليوم، رغم ما ينتظرها من مهمة إنسانية عظيمة ما أحوج العالم إليها، إنها معنية بتمتين علاقة الأرض بالسماء، معنية بربط المخلوق بخالقه، فذلك وحده من شأنه أن يحافظ على منظومة القيم الإنسانية التي جاءت كرصيد إلهي فطر بها الإنسان.

لذا نقول: في البدء كانت الكلمة، وستظل أداة التأثير الإنساني الأول لصياغة منظومة الحياة، فلنبحث عن الكلمة كسلاح تغيير، وقبل ذلك لتصحيح مسارها، وتحقيق التوازن الذي أصبح مختلاً بفعل سوء استغلال دور الكلمة من قبل أعداء الإسلام الذين لا يفتئون يتربصون به الدوائر.

٣- اللغة كأداة تأثير:

عندما كلف الله موسى، عليه السلام، بمهمة التبليغ راجع موسى ربه في مسألة مَلَكة البيان والقدرة على الإفصاح، كلازم من لزوم نجاح المهمة، فطلب من المولى، عز وجل، أن يعزره بأخيه هارون، عليه السلام، الأكثر فصاحة وبياناً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ (الشعراء:١٢-١٣).

قال الطبري في جامع البيان: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ «أحسن بياناً عما يريد أن يبينه، قال سعيد: ﴿عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾، قال: عجمة لجمرة نار أدخلها في فيه عن أمر امرأة فرعون، تردّ به عنه عقوبة فرعون، حين أخذ موسى بلحيته وهو لا يعقل، فقال: هذا عدوّ لي، فقالت له: إنه لا يعقل»[1].

أدرك أن الفصاحة سببٌ للفهم، وأن ركاكة الأسلوب وضعف التوصيل مظنة للتكذيب ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، ولعل فرعون تنبه إلى هذه الخصيصة في موسى فقال معيراً إياه: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢) قال بعض المفسرين ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يريد أنه عيٌّ اللسان ضعيف البيان، لذلك استجاب الله لموسى دعوته: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه:٣٦)، ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص:٣٥).

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) سورة القصص، آية ٣٣، ٢٠/٤٧.

وقيل: إن الله قد أجاب دعوة موسى، عليه السلام، حين قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ (طه:٢٧-٢٨) فكان بعدها فصيحاً بليغاً، وحلّت عقدة لسانه فعلاً، وعاد يبين[1].

يتبين من هنا أن بين الكلمة وأهدافها مسافة لا يطويها سوى اللغة الواضحة، والحجة البالغة كما يقول ربنا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام:١٤٩).

قال البيضاوي: « ﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ البينة الواضحة، التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه وهي من الحج بمعنى القصد، كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه. وقال القرطبي: أي التي تقطع عذر المحجوج؛ وتزيل الشك عمن نظر فيها. فحجّته البالغة على هذا تبيينه أنه الواحد، وإرساله الرسل والأنبياء؛ فبيّن التوحيد بالنظر في المخلوقات، وأيد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كلّ مكلّف»[2].

وحاجة الإسلام اليوم أكثر ما تكون إلى الداعية المتمكن، التي تسير كلماته كحزمة ضوء مسددة لا تخطئ الهدف، بل تصيب العقول والنفوس، فتؤثر فيهما وتغير مجرى حياة الفرد إلى واقع يسعى الإسلام إلى تحقيقه بمعاني الاستقامة والطهر، وهو ما يحتاجه بعض الدعاة، فهناك من لا تنقصهم الأفكار

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣١ (دار الشروق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ٣١٩٣/٥.
(٢) تفسير البيضاوي، ط١ (دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م) سورة الأنعام، آية:١٤٩، ٥٦٣/٢.

وقد تنقصهم طريقة التوصيل، وهناك من لا تنقصهم العاطفة ولكن ينقصهم المعجم الدعوي والذائقة الأسلوبية والعقل الراجح.

وربما كان اللسان في مواضع أمضى من السنان، وأوقع في النفوس من وقع السيوف، وإن صاحب اللسان الذلق والوجه الطلق أقدر من غيره على اللعب بالقلوب والتحكم فيها، وإن لجماليات اللغة وحسن الإلقاء لقدرة سحرية وفاعلية كبرى في تحديد الاتجاهات، وهذا ما نجده في الحديث الذي رواه ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»[1].

وما يلفت الانتباه أن قوة البيان قد تكون أحياناً أبلغ في التأثير من قوة الحجة، وقد يأتي البليغ من الناس الذي يملك القدرة على صوغ الألفاظ فيكسب الناس بمعسول لسانه ونظم بيانه، لذا قال ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ**»[2].

وفي هذا الحديث موضع تأمل، فقد أسند العلم إلى اللسان، وإنما المراد به كما يظهر، الحذاقة والمهارة، ومعرفة الإنسان بأسرار اللغة، والقدرة على التلاعب بها وتطويعها لأفكاره، وسحر الناس بتعدد طرائقه في الطرح، وهذه المعاني يضيئها أيضاً إشراق قول النبي ﷺ: «**إنها ستكون فتنةٌ تستنظف العرب، قتلاها في النار، اللسان فيها أشدُّ من وقع السيف**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٤٧٨٣)، انظر: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ٣/ ٣٧.

(٢) أخرجه أحمد، رقم (١٤٣).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٢٦٥) عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما؛ وأخرجه ابن ماجه والترمذي وقد ضعفه الألباني.

إن هذا الحديث خطير في مفهومه ودلالة معناه، ظاهر الإعجاز في تقييم الدور التأثيري لسلاح الكلمة، ومن الملاحظ أن فتناً كهذه قد مرت بالعرب، وأن أحدّ الشفرات وأمضاها تأثيراً على كيان الأمة العربية اليوم هو سلاح الكلمة الممثل بالدعاية التضليلية، ولم يسبق للإنسان أن شهد مثل وسائل الاتصالات التي أصبحت بمثابة ثورة انقلابية غيرت مجرى الحياة، وثروة إنسانية تركت الأبواب مشرعة أمام حاجيات الخلق جميعاً! فهل من المعقول أن تظل هذه النعمة شاغرة لكل طاعن في الدين حاقد عليه، من كافة الملل والنحل، والمشارب والأهواء التي جندت الإعلام للمسخ والترويج لألوان الفجور، في حين لم يصل بعد جهاد الكلمة عبر الوسائط الإعلامية إلى مستوى مشروع ومنهج ينافس ولو بجزء بسيط ما يقوم به أئمة الضلالة، أو الدور التنصيري الذي اخترق حجب الفضاء وغزا العالم بأساطيل إعلامية جبارة لا مجال للمقارنة، وكم من القنوات اليوم تبث سموم الشبهات والشهوات آناء الليل وأطراف النهار، كما قال الله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ (سبأ:٣٣)، وأصبحت الساحة الإسلامية مكب نفايات للأفكار الباطلة، ولا يوجد من القنوات الإسلامية العدد الذي يغني عن صد هذه الهجمة، وهناك قنوات كثيرة تسمي نفسها إسلامية تطرح أفكاراً خرافية هدامة، فلا يجب أن ننخدع بها، فبريقها خادع وسمّها ناقع.

ثانياً: مراعاة اختيار المفردات الدعوية:

١- مراعاة المخاطب في استبدال صيغ الأحكام:

تتضح أهمية تعدد المفردات المعجمية للداعية من تعدد الظروف التي قد تواجهه، ومثلما يجب أن يكون ذا مخزون وافر من المفردات المترادفات، من المهم أن تكون لديه مهارة في حسن الاختيار للمفردة وتوجيهها نحو الظرف الملائم، وهذه من أدق المهمات الاتصالية وأكثرها حساسية؛ لأن الكلمات قد تكون متقاربة في الظاهر إلا أن المسافات الفاصلة بين معنى وآخر قد يترتب عليها أحكام وتوصيفات متباعدة، وكمثال على ذلك كلمة (الإيمان) أخص من كلمة (الإسلام)، وكلمة (الإحسان) أخص من كلمة (الإيمان)، مثلما تختلف كلمة (كفر) عن (فسق) عن (عصيان)، فهذه الأخيرة يصل بينها جامع الانحراف، ولكن كل مفردة تختلف عن الأخرى في المعنى، وفي لغة الاقتصاد - مثلاً- تختلف عبارة (تذبذب قيمة العملة) عن (تراجع).. عن (ضعف).. عن (انهيار)، وهذه المترادفات قد تستعمل من قبل أطراف عدة، كل طرف وفق فهمه أو أسلوبه، أو وفق مصلحته في اختيار نوع اللفظة المختارة، فقد تختار الصحف الحكومية مثلاً كلمة (تذبذب) بينما قد تختار صحف المعارضة لفظ (انهيار)، فهذا التدرج في المعاني يلبي حاجات المتكلمين، وما يتفق مع مواقف الناس وطبائعهم، وأذواقهم، وأساليبهم، وأفهامهم.

والشيء ذاته ينطبق على المفردات الدعوية، فهي مواد خام، حيادية بذاتها حتى تصاغ في قوالب معينة، وتفرغ في ظروف لغوية خاصة، ونسوق لذلك

بعض الأمثلة الكاشفة لنفرق بين الأحسن والأخشن في الاستبدال الرأسي، وهو الذي يكون على مستوى استبدال مفردة بأخرى مرادفة لها، فلو أن إنساناً أخطأ وأردنا أن نوصل إليه الرسالة بتقرير حدوث الخطأ، فإن العبارات الاستبدالية التالية تختلف عن بعضها في دقائق التبليغ رغم أن مؤداها واحد، حيث نلحظ الفرق على نحو تصاعدي من التضمين إلى المباشرة من قولنا: (لم يتم فعل الصواب) إلى (لَـمْ تفعل الصواب) إلى (فعلت الخطأ) إلى (لقد فعلت الخطأ).

فقولنا: (لم يتم فعل الصواب) فيه حذف الفاعل، كأنما هناك خطأ قد حدث، ولا يشير اللفظ إلى الفاعل منعاً للإحراج من ذكره، ونفي فعل الصواب لا يلزم منه وقوع الخطأ، ولكنه محتمل، وقولنا: (لم تفعل الصواب) ذكر فيها الفاعل، ولكن استبدل تقرير فعل الخطأ الذي في العبارة التالية: (فعلت الخطأ) بنفي فعل الصواب، والعبارة محتملة لفعل الخطأ ولكنها ليست بحتم كالعبارة (فعلت الخطأ)، وأوضح مما سبق في المباشرة العبارة الأخيرة؛ لأن فيها ذكر الفاعل وتقرير الحكم وتوكيده باللام و«قد».

ولا تقف صور الاستبدال عند وجه، فقد يتم استبدال أسلوب الإيجاب بأسلوب النفي، مع عكس معنى الكلمة الموجبة أو المنفية - كما سبق - وكذا استبدال اسم بفعل، فأن تقول: (أنت تعصي الله) غير قولك: (عصيتَ الله)؛ لأن عصيت فعل ماض انتهى، ولا يفيد التكرار بخلاف الفعل المضارع الذي يفيد تكرار الفعل، ولكن أشد منه أن تقول: (أنت عاص لله) فـ (عاص) اسم فاعل يفيد دوام الحدوث وفيها ذكر الذات؛ لأن الصفة المشتقة فيها معنى الفعل والاسم، والفعل مقترن بالحدث، والاسم يفيد الثبات والسكون.

وإذا انتقلنا إلى أساليب الخبر والإنشاء، سنجد مساحة واسعة للاستبدال، فمعلوم أن الإنشاء صيغ طلبية، والإكثار من الطلب لا سيما في الأمر والنهي من شأنه أن يفسر بتوجيه الأوامر والنواهي على وجه الإلزام، مع أن المسألة مخاطبة العقل لإحداث استجابة طوعية، فما بال كثرة الأوامر، ولسنا هنا في معرض الحديث عن الأوامر الشرعية بل عن التوجيه الإرشادي الذي يقود إلى الله، فـ«قد يقتضي المقام تحاشي إيراد الطلب بصيغة الأمر لما فيه من معنى الإلزام؛ لأن الأمر إنشاء طلبي، وهو في علم البيان على أوجُه: من الأدنى إلى الأعلى، بمعنى الدعاء على سبيل التضرع، ويأتي بمعنى الالتماس عند استواء المتكلم والمخاطب، ويأتي من الأعلى إلى الأدنى إذا كان من جهة الآمر على المأمور، ويأتي لمعان أخرى، وقد يكون في إلقائه بصيغته مظنة للتأويل واللبس، إذا جاء ممن ليس في موقع من يأمُرْ، فيعدل عنه إلى الماضي أو إلى المضارع، وذلك إجلالاً للمخاطب لمكانته، - أو تأليفاً له - فتُستبدل صيغة: (افْعَل) بـ (فَعَلت) أو (تَفْعَل) مع أداة قلب نحو: (لو فعلتَ كذا) بصيغة الماضي بدلاً من (افعل كذا) أو (لو تفعل كذا) بصيغة المضارع، وقد يأتي بصيغة المبني للمجهول (هلا فُعل كذا) (أرى أن يُفعل كذا)»[1]. وقد حفل النص القرآني بأساليب العرض والتحضيض عوضاً عن المباشرة في التوجيه من مثل: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف: ١٠)، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي

---

(١) الفروق الدلالية للمواقع الإعرابية للمؤلف، من واقع نسخة رسالة الدكتوراه، كلية دار العلوم، رقم (٢٠٩٤)، تاريخ ٢٠١٠م، ص٢٠٢.

يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةٗ﴾ (البقـــــرة:٢٤٥)، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ (النـــــور:٢٢)، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة:٧٤).

من هنا فإن ثمة فروقاً دقيقة يجب مراعاتها، على أن من يدعو الناس إلى الخير من حيث المبدأ لا يوجد ما يضطره إلى إطلاق الأحكام، أو توجيه الأوامـــر؛ وصحيح أن للمقام دوراً أيضاً في اختيار العبارة، ولكن إذا كان في العدول عن العبارة الشديدة إلى اللينة فيه مصلحة دعوية فهي الأصل التي يبنى عليها.

يقول ابن خلدون في المقدمة: «إذا حصلت الملكـــة التامـــة في تركيـــب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الـــذي يطبـــق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصود السامع، وهذا هو معنى البلاغة»[1].

والنظر الدائم في الظروف المحيطة بالنشاط اللغوي ومراعاتها ينمـــي مـــن مهارات الاتصال الإنساني والقدرة على التحويل والاستبدال اللغوي، ويعـــزز من قواعد التخاطب، التي تتوخى وضع الأمور في نصابها؛ ولـــسوء الحـــظ أن بعضاً ممن نسبوا أنفسهم للعمل الإسلامي يرمون الكلام أحياناً على عواهنـــه، كحاطب ليل، لا يدرون على أي شيء تقع ألسنتهم، فرموا غيرهـــم بـــسهام التجريح، وكثرت عبارات التكفير، والتفسيق، والتبديع، ضد أناس من أهـــل القبلة، ووقع في مزالق الأسلوب الخاطئ غير قليل من أصحاب الأهواء، وكان

---

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ص٥٥٤.

من ضحاياهم علماء عاملون تم تقصدهم بالجافي من القول، وتم رميهم بأحكام طائشة، أتت على أيمانهم من القواعد، وقيل عنهم إنهم أخطر من أهل الضلالات والأهواء؛ لأن أولئك واضحون لكن هؤلاء أئمة ضلالة يقودون الناس إلى محدثات البدع باسم الدين، وهذا من تلبيس إبليس.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيه: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ»**[1].

ومما يزيد من الإحساس بواقع السلبية في صعيد إذكاء التراشق الفكري وإنتاج المصطلحات التبديعية بين المسلمين أن يستأثر هذا الوضع بالكثير من الجهد والوقت على حساب التفرغ لقضايانا الكبرى، والتصدي لشلال الشبهات والأباطيل التي يقذفها أعداء الأمة كل يوم بالإسلام وأهله، ويصر البعض إلا أن يتفرغ لما هو شأن إلهي من التدخل في علم السرائر، وإصدار الأحكام يميناً وشمالاً ولا يبالي على أي عرض وقع لسانه.

قال الإمام ابن تيمية، رحمه الله، في الفتاوى: «لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة فإن الله تعالى قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥). وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم. والخوارج المارقون الذين

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم، رقم (٢٢٥).

أمر النبي ﷺ بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار، ولهذا لم يسب حريمهم؛ ولم يغنم أموالهم»[1].

وقال الإمام الذهبي، رحمه الله: «...ثم إن الكبير من أئمة العلم، إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه، وورعه، واتباعه، تغفر له زلته، ولا نضله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك»[2].

٢- مراعاة المخاطَب في اختيار مفردات اللين:

وردت أحاديث صحيحة جليلة تبين فضل الرفق، وجلال قدر صاحبه عند الله عز وجل، يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[3]؛ «**حُرِّمَ عَلَى النَّارِ: كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنْ النَّاسِ**»[4]؛ «**مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ**

---

(١) فتاوى ابن تيمية، فصل: في عدم جواز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ فيه، ٢/٢٨٢.

(٢) سير أعلام النبلاء، ٥/٢٧١؛ وهو على موقع أهل الحديث برابط:
http://www.ahlalhdeeth.com/vb/attachment.php?postid=

(٣) أخرجه البخاري، انظر صحيح الجامع (١٨٨١).

(٤) الشيخ الألباني، صحيح الجامع، رقم (٣١٣٥).

الْخَيْرِ»[1]، «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ»[2]؛ «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيَرْضَى بِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ، مَا لا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ»[3]؛ وفي رواية له قال لأمّنا عائشة، رضي الله عنها: «إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ»[4]؛ وقال: «يَسِّرُوا وَلاَ تعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا»[5].

وإلى جانب اللغة اللينة والطبع اللين، نجد مفردات أخرى في المعجم الدعوي تنتمي إلى الحقل الدلالي السابق، ولكن من زاوية لا يخفى معنى الجمال فيها: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ...﴾ (العنكبوت:٤٦).

وفي آية الإسراء يقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ...﴾ (الإسراء:٥٣)، هاهنا حذف؛ وفي البلاغة الحذف أقوى من الذكر، وضرب في التوسع، فقولك: (فلان يأمر وينهى) أقوى من قولك (فلان يأمر الخدم وينهى العمال) مثلاً، ففي الذكر يقع التحديد على معين، ومثله قول الله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ (الليل:٥) فلو جاءت بذكر محدد في العطاء

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديثٌ حسَنٌ صَحيحٌ.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حديثٌ حسَنٌ صَحيحٌ.
(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٣٥٩٠)؛ أخرجه مسلم بلفظ آخر، وغيره، انظر صحيح الجامع، رقم (٧٩٢١).
(٤) انظر صحيح الجامع، حديث رقم (٤٠٤١).
(٥) أخرجه البخاري، رقم (٦٩) عن أنس؛ أخرجه مسلم عن أبي موسى، رقم (١٧٣٢) بتقديم «بشروا ولا تنفروا».

أو الخشية قلّت دلالاتها بالحصر، أي أما من أعطى الدنانير ونحوه، فقوله (أحسن) بدون تعدي إلى مفعول تعني أحسن من جميع زوايا الأداء، فأفاد العموم و لم يخصص، ومن هنا تكررت عبارة (بالتي هي أحسن): ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ...﴾ (المؤمنون:٩٦)، ﴿... ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ (فصلت:٣٤)؛ ولو وردت الآية (ادفع السيئة بالسيئة) لم تكن قد تجاوزت ميزان العدل، ولو جاءت: ادفع السيئة بالحسنة لكان في هذا فضل، ولكنها قالت (ادفع بالتي هي أحسن) على صيغة المبالغة، أي ادفع بأحسن ما يكون الحلم والرفق.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ...﴾ (فصلت:٣٤)، ويقول: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ...﴾ (النحل:١٢٥).

قال الدكتور يوسف القرضاوي: «﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ..﴾، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وهنا نجد تفرقة، في التعبير بين المطلوب في الموعظة والمطلوب في الجدال. ففي الموعظة اكتفى بأن تكون حسنة، أما في الجدال فلم يرض إلا أن يكون بالتي هي أحسن، بمعنى أنه إذا كان هناك أسلوبان أو طريقتان، إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها وأفضل، فالمأمور به أن نتبع التي هي أحسن.

وسرّ ذلك: أن الموعظة ترجع عادة إلى الموافقين، الملتزمين بالمبدأ والفكرة، فهم لا يحتاجون إلا إلى موعظة تذكرهم، وترقق قلوبهم وتجلو صداهم، وتقوي

عزائمهم، على حين يوجه الجدال - عادة- إلى المخالفين، الذين قد يدفع الخلاف معهم إلى شيء من القسوة في التعبير، أو الخشونة في التعامل، أو العنف في الجدل، فكان من الحكمة أن يطلب القرآن اتخاذ أحسن الطرائق وأمثلها للجدال أو الحوار، حتى يؤتى أكله.

ومن هذه الطرائق أو الأساليب: أن يختار المجادل أرق التعبيرات وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر»[1].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ.. ﴾ (العنكبوت:٤٦) قال: إن قالوا شرًّا، فقولوا خيراً، إلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ فانتصروا منهم، قيل ادعوا لهم وقدموا لهم الحجج»[2].

أ- البعد الجمالي في كلمة (اللين) وما في معناها:

إن تلك الألفاظ ذات الحقل الدلالي الواحد الموصول بجامع الرفق: وهي (هيِّن، ليِّن، سهل - رفق - زانه) يتضح عذوبتها وخفتها على اللسان أكثر من خلال مقابلتها بالكلمات المضادة لها: (فظ - غليظ - شدة - فحش - عنف) كما وجدنا في النصوص المتضمنة لهذه الألفاظ.

ويظهر ما ينطوي عليه النوعان من بعد حسي، ففي النوع الأول نجد معنى السهولة واللين، كأي مادة طرية لينة يمكن بلعها وهضمها، وما كان سهلاً ليناً

---

(١) يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، سلسلة «كتاب الأمة»، العدد (٢)، ط١ (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص ٢١٢.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري، ٤٦/٢٠.

من الكلام أمكن تمثله وانسيابه إلى النفس رهواً هادئاً، بعكس المعاني الثانية ذات البعد الحسي الخشن والغليظ، من الصعب هضمه دون أن يخدش أو يجرح، كأي مادة جافة غير مستساغة.

إن الرفق يحافظ على هدوء النفس وحياديتها، ويتيح للمتلقي النظر فيما يعرض عليه بروية وتؤدة، بينما الشدة تقود إلى الانفعال، وهذا يعكر المزاج، ويعطل العقل ويقوي عامل الانتصار للذات؛ لأن العقل الباطن سيحلل الموقف على أنه اعتداء وإيذاء.

والمسلّمة العقلية إذا جاءت بالعنف يمكن دفعها وردها بذات القدر من الشدة، وقد يكون من الصعب التقاط الحكمة إذا ألقيت كيفما اتفق، فالنفس البشرية حساسة وتحتاج إلى حكيم عليم بأمر تسييسها وتطويعها وسبر أغوارها، قد يقال لإنسان لا يعرف التعامل مع جهاز حسّاس: كن حذراً في التعامل مع هذا الجهاز لأنه حساس، وأي خطأ غير محسوب قد يتسبب في إتلافه، والنفس البشرية أكثر خطورة من أن توصف بجهاز حساس، ولكن لنقل إنها كجهاز حساس، أوليست تستوجب مراعاتها واختيار المناسب في التعامل معها؟ فكلمة واحدة قد تغير اتجاهها إلى الأبد، إما إلى الخير أو إلى الشر.. إن حسن الخلق هو أقرب الطرق وأوصلها إلى امتلاك أزِمَّة القلوب وقيادتها.

ب- البعد الجمالي في كلمة (أحسن) ومشتقاتها:

لنأتي إلى الألفاظ ذات المصدر الاشتقاقي الواحد (حسناً، أحسن، حسنة).

كان القياس في المصدر المؤكد قولوا للناس قولاً حسناً، والحُسن من الجمال، ولا يقال: قولوا جمالاً بل قولوا كلاماً جميلاً، إن هناك سراً موصولاً بين الجمال والحسن في الآية.

قال ابن منظور: «حسن، الـحُسْنُ: ضدُّ القُبْح ونَقيضه.. وفي القاموس المحيط الحُسْنُ، بالضم: الجَمالُ، ج: مَحاسِنُ»[1]. وقد تم اختيار هذه المعاني في هذا التوجيه القرآني، لما فيهما من تراسل بين المجرد والمدرك، ففي الكلام الحسن قوة تأثيرية مباشرة على الحالة العصبية، والنفسية، والانفعالية، وقد سبق الحديث «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»، فقد يكون في التعبير من حسن الاختيار، وجمال الأسلوب، وحسن التلطف، ما يمكن لمسه بالإدراك الذوقي المباشر، وهو ما يفسر طرب المستمعين أحياناً من عبارة تلقى أو شعر ينشد، هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية، أن الجامع بين جمال الأشكال وجمال الأخلاق هو ميل النفس إليهما، وأي سلوك تتعلق به معاني الحب والرفق فهو جميل؛ لأنه يقوم على مبدأ التضحية بحق النفس في سبيل الآخر، كالصفح سماه الله جميلاً: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥)؛ والصبر: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج:٥)؛ والهجر بالقلب مع حسن المحافظة وترك المجازاة على السيئة، كما قال المفسرون: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزّمّل:١٠).

وفي الحديث التالي جمع لما قلنا:

قال النبي ﷺ: «**إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سَفْسَافها**»[2].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ط١ (بيروت: دار صادر) باب الحاء، كتاب النون.
(٢) الألباني، صحيح الجامع، رقم (١٧٤٣).

وهكذا نجد أن للإسلام توجيهاته في اختيار نوع الكلمة في الدعوة إلى الله في مختلف ظروفها حتى مع أشد الخلق كفراً بالله، الذي كفر بالله وأضاف إلى ذلك ادعاء الألوهية، وهو فرعون، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه:٤٤)، ذلك أنه عندما يلقى الخبر ابتداء فحقه أن يلقى باللين، وهذه هي القاعدة التي يجب أن يبنى عليها، وفي مختلف ظروف النشاط اللغوي، حتى عندما يكون بين متخاصمين خصومة شخصية، فلا مقتضى لاستعمال الشدة لأول وهلة، أما في مواطن الدعوة فلا مقتضى لاستعمال غير اللين إذ الباعث هو حب الخير للناس، وتوجيه سلوكهم نحو الاتجاه الذي لا ينتهي بهم إلى زاوية من جهنم، وهذه الغاية لن تكون مفهومة إذا كان الداعية يحملهم على الإذعان بالزجر وسوقهم سوق العصا، فطريقة كهذه لابد أن تفسر بوجود مصلحة شخصية ما، قد تكون التعصب الفكري، أو الرغبة في التحكم وإملاء الرأي، رغم أن افتقاد الأسلوب قد يكون هو أساس القصة في غالب الأحيان، من هنا فلين الكلام هو باقة تُهدى من مخزون الذوق الرفيع إلى إنسان يُرجى له النفع، وفي هذا من الجماليات ما ترتاح له النفس، ويسمح بانسياب الكلام هادئاً مستساغاً، ويتيح جواً ملائماً من التفكير المتزن، وحسن الإنصات، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وقد قيل في القول المعروف في الآية: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٣)

ما خلاصته[1]: إنه القول الذي يطيِّب الخواطر وتأنس إليه النفس، كأنما هو الأصل الذي يجب أن يبنى عليه طيب الكلام، وهو معروف لأنه مستودع الفطرة السليمة، الذي وجد معها، فإذا خوطب الإنسان بهذا القول اتصل بالفطرة نقياً كما هي نقية، وحدث الانسجام والألفة، واستقرت له النفس وطابت خواطرها؛ وعكسه الكلام الوحشي النابي غير المعروف، فهذا يسبب النفور والاضطراب؛ لأنه غير مألوف صادم للفطرة، ويسبب الحزن لأنه يخدش ويجرح، ولذلك كان القول المعروف خيراً من الصدقة التي يتبعها أذى، فهي مع ما فيها من نفع إلا أن ضررها النفسي أشد على الفقير المحتاج، وهذا يدل على أهمية حسن الكلام في كل الأحوال.

٣- مراعاة المخاطب في استبدال مفردات المنادى:

أ- أساليب النداء في القرآن الكريم:

النداء أسلوب إنشائي طلبي، يتضمن فتح خط التواصل بين طرفين لطلب أمرٍ ما من المنادى، فبأي أسلوب يكون؟ إذا تتبعنا أسلوب النداء في القرآن الكريم الموجه إلى الناس وأهل الكتاب سنجد أن اختيار مفردة المنادى تتمُّ عن أسلوب اتصالي إيجابي تصالحي؛ لأن المخاطب مدعو للاستجابة لمضمون الطلب فيجب أن يخلو من الجفاء والاستفزاز، وقد ذهب بعض المفسرين في تفسير قوله

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري (الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) ٣/٣٠٩؛ أبو إسحاق الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ٢/٢٦٠.

تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ (طـه:٤٤) أن المراد: خاطباه بأحب أسمائه. قال البغوي[1]: قال السدي وعكرمة: كنياه فقولا يا أبا العباس، وقيل: يا أبا الوليد، وقد جاءت أساليب النداء في القرآن الكريم من نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ (٢١ مرة)، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (٥ مرات)، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (١٢ مرة)، و﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (٦ مرات)، وعلى لسان الأنبياء ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ (٤٩مرة)، وسنتناول الأسلوب الخير في حديثنا عن إضافة المخاطب إلى ضمير المتكلم، وهناك نداءات حكمية من مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (٨٩ مرة)، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة:٥١)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (التحريم:٧)، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (الكافرون:١).

فالنداء الموجه للناس أو بني آدم يتضمن مفاتيح القلوب والأسماع لما يأتي من الإرشادات الدعوية؛ لأنه ورد بطريقة حيادية، مع أن القرآن الكريم يسجل حقيقة أن الغالبية العظمى من الناس كافرة بربها، صادة لدعوته، محاربة لدينه، وهو الذي قال: ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (هود:١٧)، ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ (يوسف:٣٨)، ﴿..فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ (الإسراء:٨٩)، فلم تتضمن صفات حكمية، بل

---

(١) ابن مسعود البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، ط٤ (دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) ٥/٢٧٤؛ انظر الكشف والبيان، المرجع السابق، ٦/٢٤٥.

خاطبتهم بأصلهم الأول، إذ كيف ينتظر أن يلتفت المخاطَب ويعير سمعه لمصدر النداء وهو يصفع بأحكام مسبقة، وعلام تكون الاستجابة إذا انتفى باعث الطلب، فلو جاءت على نحو: أيها الناس المجرمون اعملوا عقولكم، أيها السادرون في غيكم.. أيها المنحرفون الضالون.. أيها الجاحدون لأنعم الله.. فمثل هذا النداء فيه إلغاء لحرية تفكيرهم ومصادرة حقهم في التأمل في فحوى الطلب، وأما الآيات الحكمية الثلاث فلها خصوصية المقام، كما سنرى.

ومجيء أسلوب النداء لليهود والنصارى بإضافتهم إلى الكتاب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيه اعتراف بمكانتهم الدينية، وتذكير بأنهم أولى الناس بالاستجابة؛ لأنهم على علم ودراية بصحة دعوة الإسلام، وفيه إشارة إلى وحدة المصدر، فالذي أنزل التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن، وفي هذا ما فيه من ترغيب لسماع صوت الحق، مع ما في القرآن من توصيف غاية في الرداءة لموقف أهل الكتاب من الإسلام، وخاصة اليهود وسوء أدبهم مع خالقهم واضطهادهم لأنبيائهم، وربما كان سائغاً في رأي قصيري النظر أن ينادى عليهم بـ(يا أهل الضلالة.. يا أهل المكر واللؤم والخديعة.. يا عباد العجل..) وكثير من هذه الأوصاف هي حقائق تاريخيه في الواقع، غير أن النداء بهذه الطريقة لا يتفق مع إرادة فتح التواصل معهم، فتوصيف واقعهم شيء، وظروف النداء شيء آخر لا يكون معه أحكام جاهزة، إذ كيف يقال: تعال أيها اللص لنتحاور إن كنت سارقاً أم لا، فماذا بقي للحوار وقد صدر الحكم؟!

ثم إننا نجد المولى عز وجل في ندائه لأهل الكتاب ينسب اليهود إلى أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله (يعقوب)، عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.. وفي هـذا اعتراف بشرف انتسابهم إلى هذا النبي العظيم، وهذا الشرف وهذا الفضل حقه أن يقابل بالشكر للمنعم، لا أن يحاربوا دينه، إذن ففي النداء نفسه أسلوب دعوي واستئناس وترغيب.

وأما أساليب النداء التي تضمنت أحكاماً فعلى نوعين:

النوع الأول: الحكم الإيجابي، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهي شهادة لهم وتكريم أيّ تكريم، وتحفيز لهم على التمسك بالفضل الذي صاروا إليه.. وقياساً على مذاهب ومشارب الناس كان وارداً أن يقال: (يا أصحاب محمد) بلغة تنكرية أو (يا أتباع محمد).

والنوع الثاني: الحكم السلبي، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ (الواقعة:٥١-٥٢)، فمناسبة الحكم قائمة، إذ الآية في معرض الحديث عن الجزاء، والجزاء الأخروي مبني على حكم هو الضلال والتكذيب، وإلا لماذا هم في النار لو لم يكونوا مكذبين وضالين، وأما النداء في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فإذا عرفنا سبب النزول سنجد أن المقام لم يكن مقام دعوة، بل جاء كرد حاسم، تضمن التفريق بالصفة والموقف بين الكفر والإيمان، ليقطع على الكفار أمل التأليف بين المفترق، فلقد عرض كفار مكة على المسلمين أن يعبدوا آلهتهم يوماً ويعبد كفار مكة إله المسلمين يوماً آخر! فكان في هذا التحديد والمباشرة

تيئيس لهم وللمسلمين، على أن لا صلة قرابة بين الكفر والإيمان، بل أنتم يا أهل مكة كفار، وملة من غير المسلمين، ولا يوجد بين ملتيّ التوحيد والشرك صيغة من العبودية المشتركة.

من هنا نخلص إلى القول: إن النداء الساخر أو الحكمي السلبي لا يمكن إلا أن يهيئ للقطيعة وتثبيت حالة التنافر، وبناء حواجز تمنع الاتصال، إنه صورة من صور إعلان الحرب، وهذا يفسر ما ورد في السيرة من أن النبي ﷺ نادى على اليهود في حصون خيبر بـ«**يا إخوان القردة والخنازير**»[1]، فهذا الحديث وإن ضعفه الشيخ الألباني إلا أنه ورد في مقام حرب وله ما يبرره، حيث تشتبك فيها الأسنة والألسنة، وربما كانت لغة الموادعة في حالة الحرب بعد إفراغها في حالة السلم عدول عن الأصل.

ب- أساليب النداء في السنة النبوية:

عند البحث عن صيغ النداء في الأحاديث النبوية سنجد ما يزيد عن (١٥٥) نداء للرسول الكريم ﷺ كلها باسم المنادى أو بكنيته، عدا مرة واحدة جاء (**يا ابن الخطاب**)؛ والعدول عن ذكر اسم المنادى إلى ذكر أبيه إذا كان بين متحابين فهو دلالة على مبلغ الود القائم بينهما؛ لأن كل طرف يتقبل من الآخر ما يحلو له من الأساليب، وفي حديث آخر (**يا أعرابي**)، ربما لأنه لا يعرفه من قبل، و لم أجد في حدود بحثي أن رسول الله ﷺ نادى على رجل بلفظ (يا رجل) أو (يا تميمي) أو (يا قرشي) أو (يا صاحب) أو (يا أخ) إلا أن

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ط٧ (دمشق: دار القلم، ١٩٩٨م) ص٣١٣.

يضيفه، وقد ورد (**يا أخا سبأ**)[1] و(**يا أخا بني تميم**)، وهو بمعنى يا صاحب بني تميم[2]؛ ولا مثل (يا هذا) إلا قوله لجحيفة وقد جعل يتجشأ في حضرة النبيﷺ: «**يا هذا، كف عنا من جشائك، فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة**»[3] . وفي هذا التجاهل ربما رد على إرادة التميز بإظهار حالة الامتلاء التي هو عليها، وفيه تربية وتعديل لانحراف التصور لمعنى التخمة.

والملفت أن من الصحابة من استحقوا بمواقفهم عتاب النبي ﷺ لاجتهادات خاطئة، لكنه لم يخاطبهم في موضع العتاب إلا بأحب أسمائهم مثل: (**يا حاطب**).. (**يا خالد**).. (**يا أسامة**).. (**يا أبا ذر**)، ولا يجب أن يُفهم أن هذا اللطف جاء لأن هؤلاء مسلمون، بل إننا نجد الشيء ذاته مع غير المسلمين كما تحكيه قصة (عتبة بن ربيعة) عندما جاء مفاوضاً في أمر الدعوة، وهو من هو في حربه لرسول الله ﷺ فقد خاطبه الرسول ﷺ بأجمل ما يحب أن يسمع.

قال عتبة:

«اسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها. فقال رسول الله ﷺ: **قل يا أبا الوليد أسمع.**

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه.

قال: **أقد فرغت يا أبا الوليد؟**

قال: نعم.

---

(١) من حديث لأبي داود، رقم (٣٠٢٨) وهو ضعيف الإسناد.

(٢) من حديث أخرجه أبو داود، رقم (٣٦٢٦).

(٣) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح، الإسناد، وصححه الألباني عن جحيفة.

قال: **فاسمع مني**، فقرأ عليه: **بسم الله الـــرحمن الـــرحيم.. ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾** (فصلت:١-٢) ثم انتـــهى رســـول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد. ثم قال: **قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت..»**[(١)].

نادى النبي ﷺ على عتبة بكنيته ثلاث مرات في هذا المأثور؛ والذي اشتهر عند العرب أن نداء الرجل بكنيته فيها إشعار لصاحبها بالاهتمام، وإنما لتنـــزل صاحبها مكانة من التوقير لا يقوم بها إطلاق الاسم مجرداً، بل ربما كان في إطلاق الاســـم مجرداً إهانة أحياناً، ولا يأتي من صاحب الخلق العظيم أن يقول: (اسمع يا عتبة).. ولا يتصور أن يند من النبي ﷺ غليظ القول مثل: (اسمع مـــني أيهـــا المشرك) فرغم اتصاف الرجل بهذه الصفة إلا أنه لا يحب أن يسمعها، فاقتضى المقام التأدب ليتاح فيه نقل موقف النبي ﷺ وعرض دعوته وإقامة حجته.

ج- إضافة المنادى إلى ضمير المتكلم:

ومن مظاهر التأليف الإشعار بالقرب المعنوي والمادي، ويتحقق القـــرب المعنوي في طبيعة الخطاب الذي يتضمن إضـــافة المخاطبين إلى ضمير المتـــكلم بما هو قائم من روابط الصلة المختلفة، فَفَرقٌ بين أن تقول: (الأخ محمد) وبـــين أن تقول: (أخونا محمد) لأن فيه نسبة إلى العموم، وأفضل منه (أخي محمد) لأن فيه نسبة إلى ضمير المتكلم، وهذه من البدهيات التي لا قد لا يُلتفت إليها.

وسنجد أن نسبة المخاطب أو المنادى إلى ضمير المتكلم أحد أهم أساليب الاتصال في حواريات النص القرآني، كخطاب إبراهيم لأبيه والأنبيـــاء علـــى أقوامهم رغم كفرهم.

---

(١) سيرة ابن هشام (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ١/٣١٥.

قال بعض المفسرين[1]: كان (آزر) أبو إبراهيم ينحت الأصنام ويبيعها، وكان مقرباً من الملك النمرود، وهو ما يعني أن أبا إبراهيم هذا كان من رموز الكفر، مع ذلك يضيفه نبي الله إبراهيم، عليه السلام، إلى نفسه في أربع عبارات بنداءات أربع (يا أبت) رغم انقطاع قرابة الدين بينهما، وفي ذلك ما فيه من معاني اللطف، والحلم، وأحاسيس المودة الظاهرة: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ (مريم:٤٢-٤٥).

وفي القرآن الكريم ذكرت ﴿يَٰقَوْمِ﴾ المضافة إلى النبي أكثر من (٤٩ مرة) نحو قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود:٣٠)، و﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ (١٤مرة) وغير ذلك كثير.

وتكررت ﴿أَخَاهُمْ﴾ و﴿أَخُوهُمْ﴾ التي فيها إضافة أخوة الأنبياء لقومهم نحو (١٢ مرة)، مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٠٦)، ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:٦٥).

---

(١) انظر: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، تفسير روح البيان (دار إحياء التراث العربي) ٥/٣٧٨.

والأخوة هنا هي الأخوة الإنسانية، وأخوة الانتماء القومي؛ واستعمال هذا اللفظ تحديداً لا يخلو من بعد دعوي، ففيه تذكير بأنه منهم، وهو ما يفترض إخلاص النصيحة لهم ويبعد معه غشهم؛ لأن غش القريب فيه كلفة اجتماعية أكثر من البعيد؛ والبعد الثاني أن قرابته منهم تعني أنهم يعرفون سيرته ونشأته وصدقه وأمانته، وهو يذكرهم بها، قال الشيخ الشعراوي، رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٠٦) يريد أن يُحنِّن قلوبهم عليه بكلمة ﴿أَخُوهُمْ﴾ التي تعني أنه منهم وقريب الصِّلة بهم، ليس أجنبياً عنهم، فهم يعرفون أصله ونشأته. ويعلمون صفاته وأخلاقه»[1].

وذات الشيء في إضافة القوم إلى ربهم: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ (آل عمران: ٥٠)، ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ٦٣)، ﴿.. قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ (الأعراف:٧٣)، كأنما يقول: إن الذي أرسلني إليكم هو ربكم وخالقكم والمتفضل عليكم وليس ربي وحسب، هو الذي رزقكم وصوركم وجاء بكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وإن ربًّا صفته الرحمة والإحسان لا يمكن أن يغش عباده في مصلحتهم.

وتأخذ الآيات طريقها في التدرج نحو مراتب الكمال في مزج الأخوة الإيمانية بعد ما رأينا من الأخوة الإنسانية، فنجد كلمة (النفس) تطلق على مجموع المؤمنين، وهو مزج لم يصل إليه الناس على مستوى لغة التداول، من

---

(١) تفسير الشعراوي، ط١ (بيروت: دار العودة) ٦٥٩٣/١.

ذلك قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (النور:٦١)، وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (الحجرات:١١)، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة:١٢٨)، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ (الروم:٢١)؛ إننا نقول: هذا أخي، هذا شقيقي، ولكننا لم نصل إلى مستوى التعبير القرآني ونقول: (هذا نفسي)، الذي يدل على التماهي، ولهذا المعنى وجوده في السنة، منه قول الرسول ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[1]، هذا هو رقي الخطاب الإسلامي في مجال فن التواصل والتعبير عن الحميمية الإنسانية والأخوية، فلا نجد بعدها مزيداً لمستزيد.

وفي القرآن الكريم نموذج آخر في طريقة إضافة الضمير مغاير للسابق، أي خالية من مراعاة تلك المعاني ونجدها على لسان اليهود، كقوله تعالى على لسان اليهود: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة:٦١)، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ...﴾ (البقرة:٦٨)، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا..﴾ (البقرة:٦٩)، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ..﴾ (المائدة:٢٤)، ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ..﴾ (المائدة:١١٢)، يقولون: (ربك) لا (ربنا)، وفي هذا الأسلوب محامل للتأويل، منها عدم القبول بإضافة الرب إليهم، ومنها أنه لا مكانة لنا عند الله فادعه أنت، وفيه من قلة الأدب وجفاء الأسلوب ما لا يخفى.

---

(١) أخرجه مسلم، رقم (٦٧٥١).

ومثل ما سبق القرب المادي، أي مخالطة القوم والصبر على أذاهم، قال النبي ﷺ قوله: «**الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الْمُسْلِمِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[1].

وقد ذهب بعض الناشطين في العمل الإسلامي في (مبدأ الولاء والبراء) مذاهب سدوا معها كل منافذ الاتصال، وصارت المقاطعة الشعورية والمادية تطبق على جميع المخالفين، ولاشك أن التزامنا حدود مفاهيم الشرع هو العاصم من غائلة الغلو والتطرف؛ فالإسلام منهج حياة وليس مجرد مصفوفة من التعاليم يمكن أن تلقى عن بعد، ولو كان الأمر كذلك لما احتاج الإسلام إلى ثلاثة وعشرين عاماً من الترجمة الحركية لِمُثُل الدين، وإثبات قدرتها على ملاءمة الاستعدادات الإنسانية، والإجابة عن تساؤلات فلسفة الحياة المختلفة، وإعطاء رأي الدين في المفردات التي تحكم العباد ويتحاكمون إليها، فجاءت التوجيهات الملائمة وصيغت العبارات المناسبة، فأي داعية هذا الذي يدير ظهره للناس بحجة أنهم ضالون؟ فلعمري لو كانوا مهتدين لكان وجوده من باب لزوم ما لايلزم.

إن الهجر في هدي القرآن الكريم للكافرين إنما هو هجر أعمالهم المخالفة للدين، كما قال الله، على لسان لوط، عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ (الشعراء:١٦٨)، أي من المبغضين، ولا يكون هجرهم مادياً إلا مع اليقين في استنفاد كل وسائل الاتصال، وأساليب الإيصال، كما قال الله تعالى

---

(١) جامع الترمذي، رقم (٢٥٠٧) وصححه الألباني.

على لسان نبي الله صالح، عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩)، وشعيب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف:٩٣)، وفي إبراهيم بعد أن وجد أن لا سبيل إلى هداية قومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (مريم:٤٨)، ومع اعتزاله لهم لم يهجرهم بقلبه، فلا يزال يدعو لهم.

والدليل على بداهة فكرة الاختلاط قول الله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٤٠)، فقد ورد النهي عن القعود مع قوم في مجلس يساء فيه إلى الثوابت وحسب، فإذا أقلعوا عن ذلك زال سبب هجرهم، وجاء في «أضواء البيان»: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، نهى الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن مجالسة الخائضين في آياته، ولم يبين كيفية خوضهم فيها، التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا، وبيّن ذلك كله في موضع آخر فبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء»[1]، بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ٣٤/٧.

عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ (النساء: ١٤٠).

وهذا نبي الله موسى، عليه السلام، يعود إلى قومه غضبان أسفاً، وكسر الألواح حين وجد قومه يعكفون على عبادة العجل من دون الله، وبعد أن سكن غضبه عاد إلى تأليفهم بعد أن كفروا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤)، قال ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إليه، وقال: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ ولم يقل (كفرتم)، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فهو يحتمل معان كثيرة، من ضمنها الكفر، حتى لا يقطع عليهم الأمل في عفو الله، وأعجب من ذلك ما كان من أمر هارون مع قومه، فحينما لم يستطع تغيير المنكر بقي مع قومه ولم ينعزل عنهم في زاوية، وذلك خوفاً من تفريق كلمتهم، وتشتيت وحدتهم، رغم واقع الشرك: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ (طه: ٩٢-٩٤).

إن القرب المادي ضرورة دعوية تتيح للناس أيضاً معرفة أخلاق هذا الذي يحدثهم باسم الله، فيلحظوا تطابق اللهجة مع صدق التجربة؛ وضرورة دعوية لإزالة حالة الوحشة وتحقيق مبدأ التكافؤ بين موقع الطرفين، فالدعوة عن بعد

مع إمكان الاتصال فيه تعال وترفع، قال النبي ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[1].

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (فصلت:١٤)، ففي مكنون هذه الآية ملمح دعوي عجيب، إنما تقوم مقام الصورة في تجسيد أسلوب الداعية، وهو يتلمس منافذ الوصول إلى قلوب الناس ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ فتارة يقابل الفرد عن يمينه، وتارة عن شماله، وقد يأتي فيربت عليه من خلفه فيناجيه ليعرض عليه دعوة الله، ومثل هذا المعنى نجده في طريقة دعوة نوح، عليه السلام، لقومه: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (نوح:٩)، وهذه صورة دعوية هامسة، والإسرار لا يكون عن بعد، بل من أقرب مسافة، يدرك فيها دفء المشاعر مع تصاعد الأنفاس، فعندما تضيق المسافة إلى حد الإسرار بالكلام تتأكد معها الرغبة الشديدة في كسب قلوب الآخرين، وينتفي معها الترفع أو النفور، وهذه هي أخلاق الأنبياء مع أقوامهم، بذل الوسع في إيصال الدعوة مع استنفاد شتى الطرق.

---

(١) متفق عليه، البخاري رقم (٣١٥٨)، مسلم رقم (٦٨٧٦).

ثالثاً: القِيم الدلالية في طريقة ترتيب مكونات الجملة:

تشمل القيم الاستبدالية الاستبدال على مستوى إعادة ترتيب مفـــردات الجملة، فالعرب تُقدِّم الأهم على المهم، ومن أجل ذلك قد يتقدم المسند إليـــه على المسند، خلافاً للأصل، وذلك لمقتضى دلالي، وهذا علم واسع يـــدخل في فن ترتيب الجمل، وله في لغة الخطاب الدعوي شواهد ومقامات لا تخفى، يأتي منها أسلوب التقديم والتأخير، والحذف والذكر.. وعلى ذلك يترتب مفـــاهيم فكرية، ودلالية، ولياقة أدبية، ليس بالداعية عن معرفتها غنى.

ولنمهد لذلك بهذه الأمثلـــة: قـــال تعـــالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)، فهنا تقدم الضمير على الفعل، وقد أفاد ذلـــك قصر العبادة وقصر الاستعانة على الله، بخلاف لو كانت (نعبدك ونستعين بك) فهذا لا يفيد قصر العبادة على الله، ولا يمنع منها عبادة غـــيره، ومثـــل الآيـــة الـــــسابقة: ﴿..وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقـــــرة:٤٠)، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة:٤١)، ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت:٥٦).

و بحالات التقديم والتأخير الجائز يشمل مظاهر البناء بشكل عـــام، مـــن ذلك الجمل المبدوءة بهمزة الاستفهام، كهذا المثال التوضيحي قولك: (أأنـــت عراقي كردي؟) غير قولك: (أأنت كردي عراقي؟) ففي المثال الأول الـــسؤال عن عراقيته، من أي الأقوام: (عراقي كردي؟ عراقي عربي؟ عراقي آشـــوري؟) فقدم العراق في السؤال، وفي الثاني السؤال عن كرديتـــه، مـــن أي الأكـــراد (كردي عراقي ؟ كردي إيراني؟ كردي تركي..إلخ).

وقولك: (أبنيت الدار؟) غير قولك (أأنت بنيت الدار؟) فالجملة الأولى، السؤال عن فعل البناء، فقدم الفعل، وفي الجملة الثانية السؤال عن فاعل البناء، بعد فعل البناء فتقدم، ولا يصح أن يحل أحدهما محل الآخر في تأدية المعنى.

قال عبد القاهر الجرجاني، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ (الأنعام:١٤): «حصل بالتقديم معنى قولك: أيكون غير الله بمثابة من يتخذ ولياً؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: (أأتخذ غير الله ولياً) وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد عليه»[1].

ونذكر في سياق الحديث عن الأساليب الدعوية ما يأتي:

١- تبادل المواقع بين ضميري المُلقي والمتلقي:

وتدخل الأساليب الدعوية في فن التركيب والترتيب، من ذلك تبادل المواقع بين ضمير المتكلم والمخاطب، وبين ضمير المخاطب والغائب، وذلك لتحقيق مقاصد دعوية منها التواضع، ونفي تهمة الادعاء والتنطع، وسياسة التأليف للقوم وغير ذلك كثير.

ففي معرض الحديث عن الواجبات والتكاليف مثلاً، نجد ذكر النبي يأتي أولاً، ثم قومه ثانياً، وربما حدث العكس لمقتضى دعوي آخر: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:٤١).

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية (دار قتيبة، ١٩٨٣م) ص ٨٩.

كان مقتضى المطابقة أن يستمر تقديم ضمير المتكلم على المخاطب (لي.. لكم) (أنا.. أنتم) غير أنه حدث قلب للضمير في آخر الآية فلماذا (أنتم..أنا) هذه المرة؟

في المقابلة الأولى: كان الحديث عن تحمل المسؤولية فتقدم ضمير النبي ﷺ ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ تأكيداً على أنه يتحمل وحده مسؤولية نفسه، فإلى جانب التواضع فيه تأكيد على التجرد وعدم استقواء النبي ﷺ بمكانته من الله، وأنه لن ينفعه إلا عمله، ثم جاء ذكر اختصاصهم بشأنهم ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، وسماه عمل و لم يصفه بصفته،أي لم يقل: ولكم كفركم ونحوه، تأكيداً لحيادية الخطاب الحواري من الأحكام.

وفي المقابلة الثانية: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، لأن فيها تخلية مسؤولية كل طرف تجاه الآخر قدم ضميرهم، لا مسؤولية لكم في ما أعمل ولا مسؤولية لي في عملكم، لست أنا الذي يحدد مساقكم، ولا سلطان لي عليكم فأحملكم على ما تكرهون؛ لأن إسلام المكره لا يقبله الله؛ ويلتقي مفهوم هذه الآية بآيات أخرى كثيرة تدل على أن طبيعة المهمة لا تزيد عن عرض الأدلة وإقامة الحجة.

ومثل ما سبق قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود:٣٥)، وقوله جل ذكره: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ:٢٥).

في آية هود قال: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾، إن افتريت القرآن فأنا لا سواي أتحمل جريمة ذلك، لن يحمل عني أحد سواي عاقبة جرمي، حيث تقديم الضمير هنا أيضاً يفيد الاختصاص، و لم يقل بالمقابل: (وعليكم إجرامكم)، بل قال: ﴿وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، قال المفسرون: لا أؤاخذ بذنوبكم أو بمقولتكم فيما قلتم عني. هذا كل ما قاله فيما يتعلق بهم أنه غير مسئول عن تقولاتهم فيه.

وفي آية سبأ قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: «أضاف الإجرام إلى النفس، وقال في حقهم: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم، وقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾، ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ زيادة حث على النظر، وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه، فإذا احترز، نجا ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر..»[1].

إن محصلة هذه الشواهد التي يذكر فيها (عملي – إجرامي) تشير إلى أن النبي ﷺ ظهر للناس في وضعية محايدة، وتأويله: لا تنظروا إلى الدعوة كما لو كانت انعكاساً لشخصي، بل لكل منا ظروفه البشرية، ولكم أن تفترضوا في الخطأ، وبالمحصلة لا يخلو أن يكون أحدنا على صواب والآخر على خطأ ﴿..وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤)، تعالوا نبحث عن الحقيقة مجردة عن الأهواء، ننظر إلى مضامين الدعوة بمنظار العقل والعدل، ونقيس النص الصريح بالعقل الصحيح.

---

(١) تفسير الفخر الرازي (دار إحياء التراث العربي) ص ٣٦٦٣.

ونتعلم من ذلك عدم تزكية النفس، والزعم المبدئي بامتلاك الحقيقة، أي تـرك الباب مفتوحاً للور العقل والقناعة الذاتية، ويتأكد التجرد من الإملاء والتوجيـه في أنه لا سلطان ولا إملاء لأي طرف على الآخر، وليس في يد أي طرف أن يحاسب الآخر على جرمه، هناك طرف ثالث هو الذي سيضع الجميع في ميـزان العدالـة ﴿... إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ (الغاشية:٢٦)، حـتى إننا نجد نبي الله نوح لا يتدخل في الدفاع عن أصحابه الذين اتهمهم الكفار بما لـيس فـيهم في حقيقـة الأمـر: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ (الـشعراء:١١١-١١٣)، وفي هـذا تخلية كاملة عن التعصب النابع من تزكية النفس، إننا أمام أرقى قواعد الحـوار الفكري بين أصحاب الأفكار المتباينة، تقوم على عمق الإدراك بحق كل طرف أن يحترم رأيه ابتداء، ثم يطالب بالإنصات للرأي الآخر، لكي تبسط بين يديـه الأدلة وتقام عليه الحجة، وتبقى الدعوى محل نظر وإعمال فكر، سواء كانـت دعوى حقيقية أو تهمة باطلة.

ذلك هو كمال أخلاق الأنبياء، حيث أقام الله ميزان خطابهم بلغة عمادها الشعور بالمسؤولية.. وقوامها الحيادية.. وتجنـب حـشر الآخـر في زاويـة القطعيات، بل هي من المرونة بحيث تخلو من تعريض النـاس لطائلـة القمـع الفكري، وتتركهم يُقبلون على الإسلام بحريتهم الكاملة، وإرادتهم الحرة، ومنها نأخذ الدروس ونتعلم (كيف نقول) فنجعل من جماليات الأسلوب، وصـوغ العبارات، وانتقاء الجمل في صعيد التخاطب مع الآخرين، مـشاريع دعويـة تختصر الجهد، وتقرب المسافات.

٢- التدرج في استخدام الأسماء والضمائر:

من تدرج روابط الاتصال في استخدام الضمير، بين المتكلم والمخاطب، العدول عن ذكر ضمير الغيبة إلى المخاطب مباشرة، ومن المخاطب إلى ذكر الاسم مجرداً، ومنه إلى ذكر الاسم مع الثناء وعبارات التقدير، أو مع النسبة إلى الضمير، وفي ذلك مصالح لغوية في سياق التأليف، وتضييق الهوة الشعورية الفاصلة.

وإذا كان الحديث في معرض النقد والتصويب موجهاً لشخص حاضر - على سبيل التمثيل- فليس من حسن التخاطب تجاهله وتحاشي ذكر اسمه مثل: (هناك من الناس من يزعم...)، (هذا الذي ظهر علينا ليقول...)، أو (لا يشرفني أن أتكلم مع أناس...) وقد يكون المعني هذا حاضراً يسمع؛ أو كالأسلوب التقليدي: (هذا ما عليه أصحابنا ولا شأن لي بما ذهب إليه القوم)، ويصبح التجاهل هو بوابة التحاور التي تظل بهذه الشاكلة مغلقة!

والحقيقة أن اللغة المنفتحة في مقام الخطاب المباشر هي التي تتلمَّس ذكر الأسماء - كما سبق - وكذا إيراد الضمائر وهي تتدرج في تقريب مسافة من الغيبة (ضمير البعد) (هم - هي - أولئك)، إلى المخاطب (أنتم - أنت - قولك)، إلى ضمير الجماعة الذي يشمل الطرفين (نحن - قضيتنا - حوارنا)؛ وظهور عبارات التقدير - من دون إسراف - دليل مودة وأكثر لياقة، على أن هذا ليس مطرداً في شتى المواطن وإن كان ذلك هو الأصل، وقد رأينا كيف جاءت الآيات في معرض الحديث عن مواقف حوارية مع الطرف الآخر تشير إلى ضمائر الحضور (أنتم.. إياكم.. تجرمون.. تعملون..) واستعمال الحضور تشي بالقرب المادي وتشعر بالقرب النفسي وعدم التجاهل، وقد يسمح المقام بتعزيز ضمير المخاطب بوصف تحفيزي مثل: (أنت لا ينقصك العقل الراجح،

والنظر الثاقب)، (مثلكم لا تفوقهم مثل هذه الأمور)، (أنت ممن يـــذكر بخـــير ويأمل فيه الإنصات إلى صوت الحق).

وقد وجدنا بعض أعضاء التيارات يسرف في التبسط عند مخاطبـــة أحـــد أفراد جماعته إذا اختلف معه في مسألة، ويخاطبه بأحسن أسمائه ويـــضفيه إليـــه بالأخوة والأستاذية، ويكثر من الجمل الاعتراضية في الدعاء له والثناء عليه مثل — حفظك الله – أعلى الله مقامك — سلمك الله، وعندما يسيل قلمه أو يطلق لسانه في فرد من غير جماعته يخالفه الرأي، يتكلم بـــضمير الغائـــب بـــصورة استعلائية متهكمة، مثل: (لقد طالعنا رحل أعمى البصر والبصيرة يقول كـــذا وكذا)، (لقد قرأنا لرأس الفتنة والضلال قولاً يقول فيه كـــذا...) ثم يرجمـــه بأغلظ العبارات، ويسلكه الشيطان مسالك ينتهي به إلى غير مسالك الـــدعاة، ولا غضاضة في أن يحدث مثل هذا كاستثناء، وأن يلجأ إليـــه الداعيـــة لجـــوء المضطر، ولكن المشكلة أن يصبح هذا هو منهجية ترى أن الانفتاح مع المخالف تمييع لمبدأ الولاء والبراء.

وما أكثر الجهود التي بددت في تأليف الكتب والرسائل التي تنهال علـــى أفكار الدعاة المخالفين بعبارات حارقة خارقة، ولو فتـــشت في الكـــثير مـــن الأحيان ستجد أن أيًا منهم لم يستقل بالحقيقة الكاملة، فكل له دليله، وهـــذا يعني أن الانفتاح والحوار بالتي هي أحسن هـــو الكفيـــل بتـــرجيح المواقـــف والوصول إلى صائب الرأي.

ومن غير شك أن شدة اللّجج واللّدد بين أبناء الـــصف الواحـــد يجعـــل مؤهلاتهم لدعوة غير المسلمين صفراً، فإذا كان هذا التجافي والتعامل بخطـــاب المفاصلة والكراهية بين أبناء الملة، الذين يجتمعون على ما يزيد عن ٩٥% مـــن نقاط الالتقاء فكيف سيكون الأمر مع كفار يختلفون عنا بزاوية تسعين درجـــة نطمع أن يدخلوا في الإسلام وينتظموا في سلك الموحدين.

لغة الخطاب الدعوي
بين التعزيز والتشهير

أولاً: تعزيز الحسنة بتشجيع فاعلها:

الناس بالنسبة لحاجتهم إلى مخاطبة جوانب الخير فيهم على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: بلغ درجة من التميز في جانب من جوانب الخير، بحيث صار يحمل لواءه، وهذا يحتاج إلى تعزيز سبقه بعبارات الاعتراف والإشادة.

الضرب الثاني: تبدو سائر أعماله على خير، ويحتاج إلى إكمال بعض النواقص.

والضرب الثالث: تغلب سيئاته على حسناته، ويحتاج إلى إيقاظ جوانب الخير فيه بإثارتها من مكمنها.

أما الضرب الأول: فالمطلوب تعزيز القيمة الفاضلة بالإشادة بها والثناء عليها؛ لأن ذلك يعني المصادقة على الفضل والاعتراف بالتفوق، فمن العدل أن يُذكر الإنسان بما فيه من مكارم الأخلاق، ولذلك انعكاسات عدة منها:

- أن ذكر ما في الإنسان من مظاهر التفوق يؤدي إلى زيادة التمسك بها ورعايتها من صاحبها.

- إعطاء رسالة مفادها أن مكارم الأخلاق هي عصارة الدين؛ لأن العبادة مقدمة والسلوك نتيجة، وإنما جاء الدين ليقيم الخير مقام الشر، والفضيلة مقام الرذيلة، والعدل مقام الظلم، وأن كمال الأخلاق وسموها ليس في غير هذا الدين.

- نفي ما قد يفهم عن صاحب الرسالة الدعوية من أنه إنما ينظر إلى الناس من منظار الخطيئة، وأنه راصد مثالب ليرفع من نفسه ويخفض من الآخرين.

- إشعار صاحب الفضيلة أنه يتبوأ مكانة من الإسلام بما لديه من رصيد الخير، وهذا يجعله يحافظ على هذه المكانة ولا يفرط بها.

- طالما تطلع الإنسان الصالح للنظر إلى نفسه من مرآة الآخرين، ومعرفة وضعه السلوكي من ميزان الدين والمجتمع، فإن عثر على مكانته المتقدمة، حمد الله وأثنى عليه وزاد من عمل الخير.

- إن إهمال ذكر سابقة الرجل الصالح وعدم الاعتراف بها يعني شهادة سلبية أنه خالي الوفاض.. بادي الأنفاض.. صفر اليدين.. عديم النفع، وقد ينعكس ذلك سلباً على النفسية الضعيفة، ويكون عليها فتنة.

ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد أسند إلى صاحب كل فضيلة فضيلته، قال ﷺ: **«أرأفُ أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في دينِ الله عمرُ، وأصدقُهم حياءً عثمانُ، وأقضاهم عليُّ بن أبي طالب، وأفرضُهم زيدُ بنُ ثابت، وأقرؤهم أبيٌّ، وأعلمُهم بالحلالِ والحرامِ معاذُ بنُ جبلٍ، ألا وإنّ لكلّ أمةٍ أميناً وأمينُ هذه الأمةِ أبو عبيدة بنُ الجراحِ»**[1].

---

(١) تخريج السيوطي، عن ابن عمر، تحقيق الألباني، انظر رقم (٨٦٨) في صحيح الجامع.

والشيء الذي يسترعي الانتباه أن الرسول ﷺ أطلق الألقاب بكثرة على نفر غير قليل من أصحابه، التي تعكس ما فيهم من جوانب الخير، وتميزهم بها عن غيرهم مثل: (أبو بكر الصديق)، (عمر الفاروق)، (عثمان ذو النورين)، (علي رجل يحب الله ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه)، وقد وردت هذه الأوصاف في أحاديث منها:

قال ﷺ: «**خالدُ بن الوليدُ سيفُ الله وسيفُ رسولُه، وحمزةُ أسدُ الله وأسدُ رسوله، وأبو عبيدة بن الجراح أمينُ اللهِ وأمينُ رسولِه، وحذيفةُ ابن اليمان من أصفياءِ الرحمنِ، وعبدُ الرحمن بن عوف من تجار الرحمن عز وجل**»[1]، وقال في الزبير: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**»[2]، وقال: «...**خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد**»[3]؛ «...**الحسنُ والحسينُ سيدا شباب أهلِ الجنةِ، وفاطمةُ سيدةُ نساءِ أهلِ الجنة**»[4].

وكتب الأحاديث مليئة بفضائل ومناقب بعض الصحابة والصحابيات، وفضائل بلدان، وأماكن، وقبائل كثيرة، لا يتسع المجال لذكرها ذكرت على لسان المربي الأول محمد ﷺ.

---

(١) قال الألباني: ضعيف، انظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، ط١(بيروت: المكتب الإسلامي) رقم الحديث (٢٨١٠).
(٢) البخاري، رقم (٢٦٩١)؛ ومسلم (٢٤١٥)؛ ابن ماجه (١٢٢).
(٣) تخريج السيوطي: (ق ت) عن علي، تحقيق الألباني: (صحيح)، انظر رقم (٣٣٣١) في صحيح الجامع.
(٤) ابن ماجه رقم (١١٨) عن ابن عباس، وفي مسند أبي يعلى رقم (٦٩٥٩) وغيرهما، وصححه الألباني.

الضرب الثاني: هو الذي على خير، ولكن قصرت به همته عن إدراك معالي الأخلاق، ولا يزال تنقصه بعض الخلال، فإذا أراد المربي أن ينصحه فيها، فإن من السنة أن يبدأ الحديث معه من رصيد الخير الذي فيه، فذلك مدخل آمن للحديث عن السلبيات، ولو كان البدء بالمثالب لفهم منه غمطاً له وإنكاراً لفضله، ولنتأمل في الطرق التي سلكها النبي ﷺ لمعالجة هذه الأمور، من ذلك قوله في عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**» فَكَانَ بَعْدُ لا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً[1].

وعن خريم بن فاتك الأسدي، رضي الله عنه، قال قال لي رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ أَنْتَ يَا خُرَيْمُ لَوْلا خُلَّتَانِ فِيكَ**، قُلْتُ: وَمَا هُمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: **إِسْبَالُكَ إِزَارَكَ وَإِرْخَاؤُكَ شَعْرَكَ**»[2].

الضرب الثالث: وهو الذي تغلب سيئاته على حسناته، كأن يكون كافراً بالله أو عاصياً، فمن الحكمة البحث عن المداخل الإنسانية التي تحبب إليه الخير، فالإنسان مهما تغلبت عليه نوازع الشر لا يخلو من نوازع خير، ولو بحثنا سنجد في مكنون ضميره جماليات سرعان ما تظهر على السطح إذا وجدت من يجلو عنها صدى الإهمال، وقد ورد عن الخليل بن أحمد، رحمه الله: «الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (١٠٧٠).
(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده رقم (١٨٩٠١) وعلق عليه شعيب الأرنؤوط قال: حديث حسن.

فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه»[1]. والناس يقعون كثيراً في مغبة الانطباع الأول عن الفرد، سلباً أو إيجاباً، فيأخذ هذا الانطباع كمثال للتعميم، فإذا كان الانطباع سلبياً أحاطه المجتمع بالأحكام الجائرة، فيصدقهم بدوره، وتنسحب أوهام الناس سلباً على سلوكه، وربما أحجم عن فعل الخير؛ لأنه لن يجد من الناس رضاً، فالانطباع الذي لم يأخذ وقتاً لنقشه في الذهن يحتاج إلى الكثير من الوقت لتعديله.

أما المُرَبِّي فدوره تجاوز الانطباع السلبي والبحث عن كوامن الخير في الإنسان، فإذا اكتشف شيئاً من ذلك سلط عليها أضواءه الكثيفة، وعززها بالإشادة والتشجيع، وقد ورد عن النبي ﷺ شواهد دعوية من ناحية التأليف المشار إليه آنفاً، فلو سئل الصحابة عن خالد بن الوليد قبل إسلامه، فلا أراهم يجدون فيه سوى العدو الألد الذي أثخن في المسلمين الجراح، ولكن النبي ﷺ يصوب نظره إلى خالد من زاوية أخرى، كما يحدثنا خالد بن الوليد، رضي الله عنه، عن نفسه قال: «كان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبيّ ﷺ في عمرة القضيّة، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد؛ فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك، ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: «**أَيْنَ خَالِدٌ؟**» فقلت: يأتي الله به، فقال: «**مِثْلُهُ جَهِلَ الإِسْلَامَ؟ وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَحِدَّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ كَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى**

---

(١) أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، تحقيق محمود مطرجي (بيروت: دار الفكر) ٣٣٨/١.

غَيْرِهِ»، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك فقد فاتك من مواطن صالحة. قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرّني سؤال رسول الله ﷺ عني»[1].

لنتأمل في الكلمات التي عبر بها خالد، رضي الله عنه، عن مضمون كلام رسول الله ﷺ قال: «نشطت للخروج» «زادني رغبة في الإسلام» «سرني سؤال رسول الله» وهكذا انطوى سؤال رسول الله ﷺ عن خالد على قيم دعوية منها:

- حب الإسلام الخير لجميع الناس حتى الأعداء، وقد كان خالد هو الذي أوقع النكاية بالمسلمين في غزوة أحد، ومهما كانت سوابق الشر فإنها لا تغلق باب التوبة أمام العبد.

- تعزيز قيم الخير في خالد والاعتراف بها، وهي الإشادة برجاحة عقله وذكائه في الحرب.

- إعطاؤه وعداً أنه سيأخذ مكانه الطبيعي في الإسلام لو أسلم، وسيقدم على غيره في المجال الذي يجيده وهو القيادة العسكرية، وقد أمَّره رسول الله ﷺ على كبار الصحابة بعد إسلامه.

- إعطاؤه الأمل في إدراك ما فاته من الخير وتعويضه ذلك بصالح الأعمال.

وأختم بالإشارة إلى ضرورة التفريق بين الإطراء المذموم، والمبالغة في التمجيد بهدف المجاملة أو النفاق، وبين الأسلوب الدعوي الذي قوامه العدل

---

(١) البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ٢/٢٣٨.

والإنصاف ووضع الأمور في نصابها، وتحبيب الناس إلى الخير وإيجاد الدافعية لنشدان الكمال، فهذا مطلوب، والله عز وجل قدم للنبي ﷺ أعظم شهادة على عظمة الخلاق فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، وشهادات غير مسبوقة في تاريخ الرسالة لأتباعه فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾ (آل عمران:١١٠)، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ..﴾ (الفتح:٢٩)، وعشرات الآيات من مثل: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾، ..إلخ.

إن عدم الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم فقدان للنزاهة الأخلاقية، ولا أراني أخطأت الصواب إذا قلت: إن النزاهة الأخلاقية التي أتحدث عنها هاهنا قد فقدت من الكثيرين اليوم، وصار من السهل رصد سلوك الهضم والإلغاء على مستوى الأفراد، أو على مستوى القادة والتنظيمات الفكرية والسياسية المختلفة، وتقاطعت العدالة مع عامل الخوف من الرقم التالي، فذِكْر ما في الآخر من فضائل مظنة لدى بعضهم من تراجع مركزه وقيمته الاعتبارية لحساب (الغير)، يجب أن يستمر وحده الرقم الأول، وهذا الوباء السلوكي هو نفسه الذي يقود صاحبه إلى خانة الصفر، فما كان الحسد وغمط الآخرين

حقوقهم يوماً رافعة مجد لأحد، ولقد سرت هذه الآفة في الناس سريان النار في الهشيم.. فالعالم صار هو فريد عصره ووحيد دهره.. والزعيم صار فلتة الزمان والرجل الذي لا يتكرر.. والقائد صار هو المخلّص ومبعوث العناية الإلهية.

وقد يرى بعضهم من ذوي النظر القاصر أن الاعتراف بما في الآخر من فضائل، وما له من إيجابيات هو اعتراف بشرعية ما عليه من أخطاء من ناحية، وهذا مخالف للمأثور، كما رأينا، ثم إن ألمعية الداعية المربي تستطيع تقدير الأمور، فإذا كان الثناء سيؤدي إلى الغرور والرياء أمسك عنه، أو قدمه بدرجة خفيفة، وبلغة السوق بالتقسيط المريح، فيكون قد أدى ما عليه من إعطاء شهادات حسن السيرة والسلوك، وبحيث لا تجر العدالة إلى مفسدة.

ثانياً: التركيز على فعل السيئة بدل فاعلها:

لا تقل في سياق التوجيه التربوي المباشر: (أنت لا تعجبني) ولكن قل: (لا تعجبني تصرفاتك)؛ لا تقل: (أنت ظالم) ولكن قل: (إنما تفعله ظلم)؛ بل ولا (أنت كافر) ولكن (ما تفعله كفر). فإذا أمعنّا النظر في الآيات التي تضمنت أحكاماً كفرية سنجد أن مدار الحكم يكون على الأفعال وعلى من اتصف بها، مع إهمال الإشارة إليهم، وتسميتهم ليتقرر واقعهم بالنتيجة لا المباشرة، نحو: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة:٧٢)، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة:٧٣)، وبالنتيجة نعرف أن المراد هم النصارى، ونأخذ هذا عن طريق المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى

﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة:٣٠)، وقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ حكم استنتاجي أيضاً مفهوم، وفيه عدول عن المباشرة، بينما المضمون يقود إلى تقرير هذا الواقع، مع تحقيق القيمة الدعوية في الفرق بين الأسلوبين.. أي بين قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟...﴾ وبين «كفر اليهود والنصارى»، وقال الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ولم يقل: «فإن تولوا فقولوا نشهد أنكم كفار»؛ لأن النتيجة تعطي ذلك، فالشاهد على إسلام المسلمين شهادة على شرك المشركين، بما أن الإسلام يعني توحيد الخالق.

ولا نكاد نجد نبياً من الأنبياء وجَّه حكماً صريحاً بالكفر على أشخاص بأعيانهم في مجال الدعوة والتأليف، بل عن طريق التضمين ﴿ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام:٧٤)، ومع أن هذه من الآيات الأكثر تأكيداً على واقع الانحراف، لكنها لا ترقى إلى الحكم الصريح الذي يخلو من الحكمة ومرونة الطرح، فقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ﴾ (أرى) هنا لليقين، ولكنها تأتي للظن، وقد تحمل عند المخاطبين

على ذلك، وقوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كقوله في سورة الأنبياء: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنبياء:٥٤)، ولا يخلو أن يكون قد تضمن أنكم قصدتم الحق فأخطأتموه و لم تدركوه، وفي هذا جبر لنواياهم، فندرك أن الحكم قد لطف منه كلمات غير حادة، لعل خط التواصل يستمر ممتداً دون أن يكون الأسلوب سبباً في القطيعة ورفض سماع الموعظة، في الوقت الذي قدم فيه توصيفاً كاملاً للواقع.

إن الأمر يحتاج إلى فن التخاطب مع (الآخر) دون شك، وإن الحكمة تقتضي وصف الأفعال بدلاً من وصف فاعليها، وذلك لمقاصد وغايات، منها عدم تحويل المواجهة من مواجهة أفكار إلى مواجهة أشخاص وأحكام، ومن ترك الطريق مفتوحاً لهداية الناس إلى إغلاقه في وجوههم بالقرارات الجاهزة.

ثالثاً: تحاشي أسلوب التعيين في النقد:

كان النبي ﷺ ربما ساءه شيء من تصرفات عامة يقع فيها بعض أصحابه، فيقوم فيهم خطيباً بقاعدة «**ما بال أقوام**» فلا يزيد عن قوله: «**ما بال أقوام**»، فيكتفي بالتلميح بدل التصريح، وبالتورية بدل التعرية، عنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ، وَلَكِنْ يَقُولُ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا**»[(١)]؛ ومن ذلك قوله: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ فَمَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا**

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم (٤٧٩٠).

لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ وَإِنِ اشْتَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ»[1]؛ «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ»[2]؛ «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[3]؛ «مَا بَالُ أَقْوَامٍ إِذَا غَزَوْنَا يَتَخَلَّفُ أَحَدُهُمْ عَنَّا لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ»[4].

ونزلت آيات في أعْلام من المشركين والمنافقين، حاربوا الدعوة وأغلظوا لها الخصومة، سواء فيمن مضى من الأمم السابقة أو من كان من أمة محمد ﷺ وربما كان بأيدينا ملحمة من أسماء تلك الأعلام الجاهلية لو اقتضت الحكمة الإلهية أن يخلد أصحابها بالهجاء والتشهير، غير أنه لم يكن في هذا مصلحة دعوية فتوقف القصص القرآني عند مجرد استخلاص الدروس والعبر لعلها تكون لمن خلفهم موعظة وذكرى للذاكرين.

وسنجد في أسباب نزول بعض الآيات أنها نزلت في أبيٍّ جهل وأبيٍّ ابن خلف والوليد وغيرهم، فنزلت في أبي جهل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ (الدخان:٤٣- ٤٤)[5]، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٢٥٨٤).
(٢) أخرجه مسلم، رقم (٩٩٤)؛ أخرجه أبو داود والإمام أحمد وغيرهم واللفظ لأحمد.
(٣) أخرجه البخاري، رقم (٦٨٧١).
(٤) أخرجه مسلم، رقم (٤٥٢١) والنبيب: صوت التيس عند السفاد.
(٥) أحمد الفاسي أبو العباس، البحر المديد، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ٧/٧٩.

خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (يس:٧٧)، قال: نزلت في أبيٍّ بن خلف[١]؛ وقوله تعالى: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (المدثر:١١) نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش[٢]، وكان من أكثر الناس حرباً للإسلام.. وقال عز وجل: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ (الهُمَزَة:١-٢) قيل نزلت في الأخنس بن شريق[٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان:٢٧) نزلت في عقبة بن المعيط الذي خالف اتباع النبي إرضاء لأمية بن خلف[٤].

وأخبر الله عن الذين جاءوا بالإفك عصبة في حادثة الإفك بالمدينة، ولم يسمهم لنا، واكتفت النصوص بالضمائر الإشارية، وكان منهم (عبد الله بن أبيٍّ) وهو رئيس العصابة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور:١١)، الذي تولى كبره ذكر في الصحيحين أنه رأس النفاق عبد الله بن أبيٍّ[٥].

---

(١) أورده جلال الدين السيوطي في الدر المنثور (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٣م) ٧/٧٥.

(٢) انظر: الإمام البيهقي، شعب الإيمان، ١/١٥٦.

(٣) بحر العلوم، ٣/٥٩١.

(٤) مجد الدين ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ط١ (مكتبة الحلواني – مطبعة الملاح – مكتبة دار البيان) ٢/٢٨٤.

(٥) انظر قصة الإفك في البخاري، رقم (٣٩١٠)؛ ومسلم رقم (٧١٩٦).

فإذا كان في الرسالة الإبلاغية كفاية لتحقيق المقاصد الشرعية فقد لا يضيف ذكر الأسماء أحياناً سوى بلبلة في الصفوف، لاسيما إذا كان المعني منضوياً داخل المجتمع المسلم.

وقد يضبط المسلم متلبساً بخطأ أيضاً، ومن السنة عدم التشهير به أمام الناس، عن معاوية بن الحكم قال: «بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَ اللَّهِ مَا كَهَرَنِي، وَلا ضَرَبَنِي، وَلا شَتَمَنِي، قَالَ: **إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ...**»[1].

يجب أن يلفت انتباهنا في هذا الحديث عدم سؤال النبي ﷺ عن المتكلم في الصلاة، والاكتفاء بشرح ما يكون في هذه العبادة وفي هذا كفاية لإيصال الرسالة؛ إن القاعدة في لغة الخطاب الدعوي هو التركيز على مضمون الرسالة الدعوية، وتحاشي ذكر الأسماء طالما كان في ذكرها فتنة للناس أو تنفير.

وهناك حادثة أخرى عكس الأولى، مروية عن أنس: «أن رجلاً جاء فدخل الصف وقد حفزه النفس فقال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قال: «**أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ**»، فأرم

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وغيره من أصحاب السنن.

القـوم، فقال: «**أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا**». فقال رجل: جئت وقـد حفزني النفس فقلتها، فَقَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا**»[1].

في هذا الحديث نجد إلحاح النبي ﷺ على معرفة من القائل لأن فيه خيراً لصاحبه وبشارة، وفي ذكر اسمه اعتراف له بهذه الخاصية.

وقد يُحتج علينا في هذا المجال بأدلة مقابلة فيها ذكر أشخاص بأعيانهم وفي معرض القدح وليس المدح، سواء في القرآن الكريم أو السنة، فقـد جـاء في القرآن الكريم ذكر: (آزر، وفرعون، وهامان، وقارون، وجالوت، وأبو لهب)، والنبي ﷺ أطلق اسم (أبو جهل) على أبي الحكم عمرو بن هشام، و(أبو لهب) على (عبد العزى بن عبد المطلب)، و(مسيلمة الكذاب) وهو مسيلمة بن حبيب الحنفي، وجاءت تسمية أبي جهـل من الجهل والطيش الذي تميز به صـاحبه، وأبا لهب لحمرة في وجهه ولأنه من أصحاب النار، والكـذاب لأنـه ادعـى النبوة.. وللإجابة عن إطلاق هذه الأوصاف القادحة على خصوم الدعوة يمكن تلخيصها في نقطتين:

الأولى: ما ذكر من أسماء المخالفين في القرآن الكريم على حجمه الكـبير وفي السنة المطهرة على سعتها تعد قليلة ونادرة، وهو أمر مبهر أن نجـد هـذه التخلية الواسعة لذكر الأعداء، حتى المنافقين لم نجد كشفاً بأسمائهم بل كـانوا ضمن السر النبوي لا يعلمهم أحد غيره، عدا حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه،

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٤٠٤)؛ أخرجه غير مسلم.

الذي كان مستودع سره، جاء في شرح البخاري: «أن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، كان صاحب سر رسول الله ﷺ في شأن المنافقين، وكان يعرفهم ولا يعرفهم غيره، وكان النبي ﷺ أسر إليه بأسماء عدة من المنافقين وأهل الكفر والذين نزلت فيهم الآية و لم يسر إليه بأسماء جميعهم»[1].

فلنسأل أنفسنا: لماذا هذه السرية؟ إن لم تكن الحكمة هي في الستر في الغالب وليست في التشهير.

الثانية: عندما يتبين أن المحارب لدين الله قد نصب نفسه رمزاً للشر، وجعل من نفسه رأس حربة ضد الدين، وأنه صار مكمن فتنة ومجال تأثير في الناس، وتبين أن وراء هذا الموقف عداوة مترصدة، لا جهل بالحق فيرجى صلاحه، فإن الحكمة في وضع كهذا تكمن في فتح خط المواجهة الفكرية مع العدو الخبيث المترصد، ونشر أوساخه على حبل الغسيل، ونعته بما هو أهله، وقد وصف الله الوليد بن المغيرة في سورة القلم بأوصاف قاسية ألزمته الذلة والصغار، قال الله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم: ١٠-١٦).

﴿حَلَّافٍ﴾: كثير الحلف، ﴿مَّهِينٍ﴾: حقير، ﴿هَمَّازٍ﴾: عياب مغتاب، ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾: ساع للكلام بين الناس للإفساد بينهم، ﴿عُتُلٍّ﴾: غليظ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٣٨١).

جاف، ﴿زَنِيمٍ﴾: دَعي في قريش، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة، ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾: سنجعل على أنفه علامة يعيَّر بها ما عاش، فخطم أنفه بالسيف يوم بدر، قال ابن عباس: «لا نعلم أن الله وصف أحداً بما وصفه به من العيوب فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً»[1].

إن ترك العدو المحارب للدين يصول ويجول ويسدد حربه وحرابه ضد الدين في مقابل حالة من التستر عليه بعبارات من نحو: (ما بال أقوام)، قد يكون سبباً في التمادي واشتباه الغفلة، وقلة الحيلة، والعجز عن المواجهة؛ وإذا قسنا هذا العجز على واقع بعض رموز الدين من العلماء والدعاة الكبار في بلادنا الإسلامية، حيث صاروا يعانون من حالة احتباس في الألسنة، فلا يكادون يشيرون إلى أحد بكلمة حق إلا بعبارات عامة مائعة وفضفاضة اعتلالاً بحجة عدم التشهير.. إن هذه الفئة من العلماء لا تسمي الأشياء بمسمياتها فيكونون جزءاً من تضليل الناس بواقع أمتهم.

رابعاً: تحاشي لغة التعميم في النقد:

وفي نفس السياق تصادفنا الكثير من النصوص القرآنية التي تشير إلى عدل الإسلام، ودقته في وصف سلوك الطرف الآخر، فيندر أن تجد صيغ العموم في مواجهة أمة بأكملها مثل (كل، جميع) وأشباهها، بل ما نجده صيغاً مرنة تفيد النسبية والتبعيض، مثل (ومنهم من) وقد تكررت هذه (٢٤ مرة)، أما كلمة (منهم) فقد وردت (١٧٦) مرة، (وكثير منهم) تكررت (٥ مرات)، وسيتضاعف

---

(١) جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين (القاهرة: دار الحديث) سورة العلق:١٢-١٣.

العدد مئات المرات لو بحثنا عن (من) التي للتبعيض، إنها قاعدة قرآنية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، يقول تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران:١١٣)، ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ..﴾ (التوبة:١٠١)، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ..﴾ (المائدة من: ١٤)، ﴿..مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة من:٦٦)، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف:١٠٢).

ومحل الشاهد أن (كل) (جميع) وما في حكمهما ليس أسلوباً دعوياً في الأحكام، واللغة النسبية تُخرج الداعية من كثير من المآزق، ولا يلتقي الناس بالمطلق على قاعدة من الإجماع، حتى على مستوى أصحاب الديانة الباطلة، ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، إنها حقيقة خالدة، فبالرغم من جامع الكفر إلا أن منهم شديد العداوة لله ورسوله، ومنهم الأقرب مودة إلى المسلمين ويمكن التعامل معهم والإفادة منهم، ومنهم من تنقصه المعرفة بالطرف المقابل.

وصحيح أن أي صفة حميدة أو عمل صالح لا يدخل من بوابة الإسلام ليس شيئاً في ميزان الدين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣)، ولا يترتب عليه دخول الجنة، إلا أن الصحيح أيضاً أن الكفار يختلفون قرباً وبعداً من مراتب الشر، وأن النار من أجل ذلك جاءت

دركات، مثلما جاءت الجنة درجات، وتلك سنة الله في خلقـــه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود:١١٨-١١٩).

وصفة الكفر لا تحول دون إقامة ميزان العدالة مع الكافر، أو مع أمة تميزت ببعض مكارم الأخلاق، وإذا صح أن نقول: ليس بعـــد الكفر ذنب، فلا يصح أن نقول: ليس مع الكافر فضيلة، فقد يكون هذا كافراً وهذا كافراً ولكن هذا غير هذا في القيم الإنسانية المشتركة، مثل العدالة، والإنصاف، والوفاء، والصدق، والالتزام، بل إن بعض المجتمعات الغربية في المعاملات اليومية تتفوق على بعض مجتمعات المسلمين رغم ما يمتلكه المسلمون من رصيد ديني في مكارم الأخلاق ليس له نظير، من هنا لا يجب أن يستنكف الداعية من وصف الكافر بما فيه من الصفات وتعزيزها بالثناء، وعلى أساس هذه المشتركات الإنسانية أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، أمرهـــم بالفرار من دار كفر إلى دار كفر، ولو لم يكن ثمـــة فرق بين مجتمـــع كافر وآخـــر ما أمرهم بذلك.. بل قال: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ حَتَّى يَجْعَـــلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[١]؛ وإن في الجاهلية لأخيار: «...**فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا**»[٢].

---

(١) سنن البيهقي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٣١٩٠).
(٢) أخرجه البخاري، رقم (٣١٩٤).

والحديث في هذا يسري على المؤمنين والكافرين، أي النسبية وتوخي العدالة في الأحكام، فالله تعالى ذكر في محكم كتابه أن من عباده الذين اصطفى الضعيف، والقوي، والسابق بالخيرات، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢)، وعلى لسان الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ..﴾ (الجن:١٤).

هذه هي منهجية القرآن الكريم قائمة على الإنصاف ومبدأ النسبية، وهي المنهجية التي أدارت لها بعض الجماعات الدينية ظهرها، فكل جماعة ترفع سيف الأحكام المطلقة وتشتغل بإحصاء خطايا ومثالب الجماعة الأخرى، وأوشك الفرز الفئوي أن يوقف الناس على لونين لا ثالث لهما، إما أبيض وإما أسود، إما محض خير، أو محض شر، إما مَلَك يمشي على الأرض، أو شيطان نبت من تحت الأرض، وصار الانتساب إلى الجماعة، أو الطائفة هو الذي يمنح أو يمنع الفرد صفة الصلاح والتقوى، حتى ليكفي الفرد جملة من المظاهر الشكلية ليأخذ طابع الانتماء إلى إحدى الجماعات، ويُعَنْون نفسه على أساسها، فيحصل على درجة الملائكية، وشهادة الائتمان على سلامة الإيمان، وهذا السلوك العصبوي القائم على تزكية النفس وإلغاء الآخر، الذي لا يلتزم بالقيم العلمية الضابطة للتعامل مع الآخر، سلوك شائع بين الكثير من التكوينات الفكرية والسياسية: «إن كل الأفراد سواء المتعصبون منهم أو غير المتعصبين يدعمون اتجاهاتهم ومعتقداتهم ويبررون سلوكهم بنمط معقّد من

الشعارات التي تجعل من الصعب أحياناً إزاحة هذه الاتجاهات والمعتقدات، فالحاجة إلى الحفاظ على معتقداتهم تصبح في الغالب جزءاً متكاملاً من بناء شخصياتهم، وهذا يؤثر في إدراكهم وحكمهم على الأمور، فإدراكهم إدراك منتقى؛ ذلك لأنهم يدركون ما يؤيد معتقداتهم وحسب، فالمتعصبون يشعرون بأن العالم من حولهم مؤهل بجماعات بغيضة، فهم يحرفون المواقف ويسيئون فهمها، وهذا يزودهم ببدائل زائفة، لكن بالنسبة إليهم تصبح دلائل مقنعة»[1].

وفي واقع الجماعات الإسلامية ساد الشعور بامتلاك الحقيقة، وكل جماعة تقريباً ترى رأيها حقاً لا يحتمل الخطأ، ورأي غيرها خطأ لا يحتمل الصواب، وعشعشت في الأذهان فكرة الفرقة الناجية، وأصبحت الدعوة إلى الدين الحق مسؤولية تشرفت بحملها هذه الجماعة من دون الناس، إذ كيف يدعو إلى الحق من كان على باطل، يقول الدكتور طه جابر العلواني: «إن فكرة البديل وأحادية العرض قد شاعت في العمل الإسلامي؛ إذ أصبحت كل فئة تدعي أن غيرها أخطأ وجانب الصواب وضل عن الهدف، وأنها وحدها التي سوف تنقذ الأمة، وتعيد ما انتقض من عراها، وأنها وحدها جماعة المسلمين، أو الجماعة التي على حق. وقد أوجد هذا حالة من الفرقة والخلاف -بل والصراع- بين مختلف الفئات؛ إذ نجد أن كثيراً من الحركات الإصلاحية أخذت تؤصل لفكرة كونها البديل عن سائر الحركات في أدبياتها وخطاباتها، وأطروحات قادتها.

---

(١) انظر: أحمد زايد، سيكلوجيا العلاقات بين الجماعات، عالم المعرفة (٣٢٦)، أبريل ٢٠٠٦م، دولة الكويت، ص ١٢١.
Bloom, L. (1972) The social psychology of race relations.London

ومظاهر الفرقة والتناحر والصراع التي نشهدها على الساحة الإسلامية بين فصائل الحركة ذاتها، وبينها وبين فصائل الأمة الأخرى، تنذر بأوخم العواقب للحركة الإسلامية، بل وعلى مستوى الأمة كلها. وهذه الأحادية، واعتبار كل فريق نفسه البديل عن كل ما عداه، والناطق الرسمي باسم الله، جعل سائر الفئات تتصارع وتبدد جهودها في نزاعاتها، وتضيع أهداف الأمة العليا على مذابح النزاعات والفتن الداخلية. وقد ساعد على ذلك تلك التوجيهات التي جعلت الولاء للحركة وقيادتها تعبيراً عن الولاء للإسلام، وتحولت التكتلات من وسائل إلى هدف، وصارت التنظيمات الحركية هي الهدف الأساسي»(١).

خامساً: تنزيه الإرادة الإلهية في مسائل خلافية:

كثير ممن تقمصوا عباءة الزعامة الدينية من الأحداث في عصرنا هذا لا تفتأ العبارات الإسلامية جارية على ألسنتهم، حتى وهم يتحدثون عن ممارسات خاطئة قاموا بها، كقتل الأبرياء في أوضاع خلافٍ وفتنة .. فإذا ظهر أحدهم لشرح موقفه من الآخر تجده يجعل الله في صفّه بالإكثار من عبارات الدين كقولهم: (نحن نعمل بإرادة الله تبارك وتعالى)، (هدفنا - ولله الحمد- رفع راية الدين)، (هذا من فضل الله عز وجل علينا)، (لن نسخط الله من أجل إرضاء الآخرين)؛ هذه اللغة الحشرية لاسم (الدين) و(الله) و(الإسلام) في مسائل خلافية قد تكون مصطنعة، وبمثابة قشرة ظاهرة لا تدل على اللب، أما التكوين الفكري فهو مشبع بالمخالفات الدينية.

(١) مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الكتاب (١٢)، ١٩٩٨م، ص ٧٦.

إن اللغة الاحترازية المؤدبة هي التي لا تجعل الاجتهادات البشرية عين المشيئة الإلهية، من يستطيع أن يجزم أن رأيه في مسائل خلافية يمثل إرادة الله؟ ومهمة المولى، عز وجل، لم تتوقف عند المصادقة على رأي طرف دون الآخر! إنه تصور خاطئ فيه ما فيه من إساءة الأدب وعدم التورع.

ولا تكاد تجد طائفة دينية -كما أشرنا- إلا وهي تسند كل أعمالها واجتهاداتها إلى مشيئة الله وإلى الدين مهما اقترفت من جرائم فادحة واجتهادات قادحة، وحشر الدين في ظروف كهذه ستحمله عبء أوزار الآخرين، والصحيح أن يسند الداعية أو الجماعة المدعية أفعالها إلى نفسها، كأن تقول: (فعلنا كذا – رأينا كذا- اجتهدنا كذا) وتترك الإسلام بعيداً عن تجديفها، فإن أصابت علم الناس بالنتيجة أن مكونها الفكري قد جاء بالأمور السليمة، وإن أخطأت فخطؤها على نفسها، والنبي ﷺ يعطينا درساً عملياً في إسناد الاجتهادات إلى النفس غاية في الأهمية.

فعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ «إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً»، ثم أورد الحديث إلى قول النبي ﷺ: «.. **وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِه. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم، رقم (٤٦١٩).

فالنبي ﷺ يعلمنا مسألة التفريق بين ما هو من عند الله وما هــو اجتــهاد بشري، فما كان من اجتهاد الناس فــلا يجب أن يُنسب إلى الله، وإنما تفعــل ذلك الجبرية.

سادساً: أساليب الرد على إساءات الجاهلين:

يقص علينا القرآن الكريم أخبار الأنبياء والمرسلين وما لا قوه من صنوف الإيذاء المعنوي والنفسي من أقوامهم، وقد يتعرضون للإيذاء الجسدي أيضاً، ورماهم الناس بعبارات السخرية والاستهزاء مثل هذه المفردات التي وردت في القرآن: (سَاحِر)، (شاعر)، (كاهن)، (مفتر)، (مجنون)، (مهين)، (كَذَّاب أشر)، (في ضلالة)، (في سفاهة)، والشيء نفسه مع أتباع الأنبياء مثل وصف الكفار لهم بأنهم: (ضالون)، (سفهاء)، (شرذمة)، (غاوين)، (كاذبين)، (أراذلنا)، (الأرذلون)...

ولقد تعرض النبي ﷺ إلى الشتم ورجمه أهل الطائف حتى سال الدم مــن قدمه الشريف، ووضع أبو جهل السلى على عاتقه الشريف وهو يصلي، وبصق عقبة بن المعيط في وجهه، وكان رد النبي ﷺ هو الدعاء المأثور: «**اللهم اغفــر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، لم يكن في رد الأنبياء على تلك الإســاءات غــير الأدب وعفة اللسان، وإظهار الشفقة على قومهم، وإذا تعدى ذلك لم يتجاوز حــدود الدفــاع عن النفــس، ونفي الشبهة، وتجنب الــرد بالمثــل: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٦-٦٨)؛ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف:٦٠-٦١).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ رغم توجيه الإساءة إليه لم يمنعه ذلك أن ينسبهم إليه، وفي هذا تذكير برابط الأخوة، ووشيجة القربى، مع أنهم لا يبادلونه نفس الشعور.. لقد منعه الأدب وحسن التخاطب من إلغاء هذا القرب القومي، وبقي رغم خشونة أسلوبهم على لهجته التصالحية ﴿يَٰقَوْمِ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ قال الثعالبي: «مبالغة في حسن الأدب والإعراض عن الجفاء منهم وتناولهم برفق وسعة صدر حسب ما تقتضيه خلق النبوة»[1].

قال الإمام الزمخشري: «في إجابة الأنبياء، عليهم السلام، من نسبهم إلى الضلال والسفاهة - بما أجابوهم من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم - أدب حسن، وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم»[2].

وعندما وجهوا التهم ضد أتباعه المؤمنين لم يقابل الإساءة ﷺ بمثلها، ولم يتجاوز حدود الدفاع عن أتباعه بقوله: ﴿.. وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) مجموعة من العلماء، عدد من أساتذة التفسير، تحت إشراف الدكتور عبد الله ابن عبد المحسن التركي، التفسير الميسر (سورة الأعراف الآية:٦٠-٦١).
(٢) الزمخشري، الكشاف، تحقيق عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي) الآية (٦٧) من سورة الأعراف.

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود:٢٩-٣٠)، وقد كان من السهل أن يرد النبي ﷺ بعبارة استهجان على دعاوى هي محض افتراء، فكيف يصبح من هو طاهر السيرة نقي السريرة في ضلالة أو في سفاهة؟ وكان من السهل أن يسخر - وهم أهل لكل سخرية - من مطالب عدوانية تتضمن إلحاق الأذى بالمستضعفين، إذ يقيسون الحسن والقبح على القوالب دون القلوب، وعلى الأشكال دون الأفعال، وهذا دأب أكابر المجرمين من الناس، يناقشون ما هو عندنا في حكم الترف الفكري، فقد يبدو لنا، لنظرتنا القاصرة أن من ضياع الوقت محاولة إقناع نفوس مليئة بالعجرفة، مشبعة بروح الازدراء للآخر بعدالة قضيته، والأجدى نشر معايب كبرهم وغرورهم بدلاً من ذلك، غير أن مبدأ التعامل بالمثل انسياق في غير الهدف الأساس الذي من أجله ينهض الدعاة والمصلحون؛ وأصحاب الدعوات الكبرى إذا أرادوا أن يصلوا إلى أهدافهم يحملون الإساءات على محامل شتى، فهم ينظرون إليها كعوائق في الطريق يجب تجاوزها، والانشغال بالحوادث العارضة، والتوقف عندها كفيل بتبديد الطاقات وإهدار الإمكانيات في غير ما سخرت له، مثلما أنها استجابة لرغبة الطرف الآخر في مجاراته والانحراف بصاحب الهدف عن هدفه المرسوم، فيمرون بمثل هذه العوائق العارضة مرور الكرام كما قال الله: ﴿..وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢)، ﴿..وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ (الفرقان:٦٣)، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ

﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩).

عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله تعالى عنهما، قالت: «لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مذمماً أبينـا ودينـه قلينا..»[١]. هـذا الموقف العدائي العارض لم يصرف النبي ﷺ عن الغاية التي كرس حياته من أجلها، بل ذهب إلى تحليل الشتيمة وصرفها عنه لتصبح غير ذات تأثير، فلا تكلفه الوقت ولا يحزن لها أصحابه، ففي الحـديث عن أبي هريرة، رضـي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«أَلاَ تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّى لَعْنَ قُرَيْشٍ وَشَتْمَهُمْ؟! يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ»**[٢].

فبدا النبي ﷺ بهذه اللغة المتفائلة الفريدة كأنما هو الذي يوجه الأحـداث العارضـة، ويتحـكم في مسـارها، ويمنحها الدلالات التي تخـدم موقفـه وليس العكس.

ومنه حـديث جابر، رضي الله عنه، قال: سلم ناس من اليهـود علـى النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم (أي الموت عليكم) قال: **«وعليكم»**[٣].

وفي رواية عائشة، رضي الله عنها، قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقـالوا: السام عليـكم. فقلت: بل عليكم السـام واللعنة. فقال:

---

(١) مستدرك الحاكم، رقم (٣٣٧٦).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (٣٣٤٠).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم (١١١٠).

«يا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ». قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»[1].. كم من الناس تسعه عبارة كهذه التي صدرت من فم أقامه الله بميزان القسط والعدل؟ قليل من يفعل ذلك، فالنبي المُعلم يرى في رده المتزن كفاية تغنيه عن مؤونة اللحاج، وجدلية الرد والرد المضاد، والغالب والمغلوب في معركة التلاسن التي تنشب بين الناس...

وتفسير تجنب الرد بالمثل من هؤلاء المصلحين هو أن أصحاب المشاريع الإنسانية النبيلة بعيدون عن التعامل بلغة الثأر؛ لأنهم مشاعل تحترق لتضيء للآخرين طريقها، علاوة على أن منطلق الدعوة قائم على أساس مدافعة جهل الناس بتقديم العلاج لهم، وجهلهم متوقع ابتداء، فكيف يضيق صاحب الرسالة الدعوية ذرعاً بشيء معلوم بالبديهة، وإن الصبر والمدافعة بالتي هي أحسن علامة إخلاص رجل الدعوة إلى الله، ودليل مثاليته، ولهذا تأثيره في الدعوة، قال الله:﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (فصلت:٣٤-٣٦)، فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، لقد اشتملت على الأمر بالرفق، والترغيب فيه، والتوجيه للتغلب على الشيطان الذي يوقع العداوة بين الناس، وكلها حاثة على مصانعة العدو والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (١٣٤٧)؛ ومسلم، رقم (٢١٦٥).

أخرج ابن أبـي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس، رضي الله عنه، أنه قال في الآية: «يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول: إن كنت كاذباً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لك، وإن كنت صادقاً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لي»[1].

إن بريق الإسلام لا يظهر إلا بحسن تمثيله وصدق تمثله، ولو كانت الآيات القرآنية كافية بذاتها لإحداث التغيير في النفوس لكان يكفي القرآن أن يصبح كتاباً متداولاً كأي كتاب، ولكنه احتاج إلى ثلاث وعشرين سنة من الترجمة العملية ليتحول إلى معاني حية، تمثلت في مجمل السيرة النبوية، وقد لخصت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، ذلك عندما سئلت عن أخلاقه فقالت: «كان خلقه القرآن»[2].

وإذا تحدثنا عن الداعية القدوة بين أصحابه فقد تنزله الظروف منازل تمتحن فيها قدرته على تحمل الإساءات، فجدير به أن يتفهم طبيعة المهمة التي وضع نفسه فيها؛ وفي قصة (ذو الخويصرة) مع الرسول ﷺ الكثير من الدروس المستفادة في هذا الجانب، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**». فَقَالَ عُمَرُ

---

(١) أبو بكر أحمد بن مروان المالكي، المجالسة وجواهر العلم، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان (البحرين: أم الخصم، جمعية التربية الإسلامية)؛ (بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ) ٣٢٢/٤.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل، ١٦٣/٦، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ابْنُ الْخَطَّابِ، رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَـهُ. قَـالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَـلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَـرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُـونَ مِـنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ...»[1].

ألقى هذا الأعرابي الحكم بالظلم المؤكد بـ«إن» في وجه من تمثلت فيـه معاني القيم الإنسانية، تشهد على ذلك بسـاطة حياته ونقاء ثوبه، وهو الذي لو شاء أن يتخَوَّض في الحقـوق لأقره العرف السـائد آنذاك، في أن يتصرف بما في يده غير مُلام، فقد كان ثرياً زاهداً و لم يكن فقيراً فاقداً، ولكنـه عـاش على الكفاف، ولو صنفنـا حياته، عليه السـلام، بالمقاييس المعاصرة لقلنـا: إنها كانت تحت مستوى خط الفقر، وهو الذي تجبى إليه الأموال من أطـراف الجزيرة، فما الذي حمل الأعرابي على نفي صفة العدالة عنه؟ هل كان هذا الرجل رقيق الإيمان؟ أم حديث عهد بالكفر؟ يشير نص الحديث إلى أنه كان متديناً غالياً في التدين، ونبه الحديث إلى أن هذا الأسلوب أصبح يمثل ظاهرة يقودها هـذا الرجل، وأن أبرز سمات أصحابها كثرة التعبد وقراءة القرآن، وإذن فهو غـرور الادعاء وتزكية النفس، جعلت هذا الرجل يعدل على رسول الله ﷺ؛ إنها حالة مرضية يحس المصاب بها بمستوى من الكمال الذي يتجاوز حتى أفضل النماذج فينظر إلى جميع الناس بدونية، وما يقف حتى يمنح نفسه حق النظر في المـوازين العادلة ليعيد تقييمها بنفسه والحكم عليها، كأنما يجب أن تمر المفاهيم عن طريقه

---

(١) متفق عليه، البخاري رقم (٣٤١٤)؛ مسلم رقم (٢٥٠٥) واللفظ لمسلم.

ليقول فيها كلمته، فهذا رسول الله ﷺ الذي جاءت معه موازين العدالة السماوية يتلقى توجيهاً في العدالة من رجل أعرابي حلف فلم يزد الرسول ﷺ أن قال: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**»، ثم تركه وشأنه.

ولهذه الحادثة مثيلاتها في سياق السيرة النبوية، وقد مثلت اختبارات انضباطية قاسية خرج النبي ﷺ منها بأفضل النجاحات، كأنما كنا بحاجة إليها لنتعلم كيف يمكن مواجهة اللغة الحكمية الصِّدَامية، التي تفتقر إلى مهارات التواصل مع (الآخر)، واليوم نعايش هذه الحالة المرضية وقد برزت كظاهرة أكثر من أي وقت مضى، شباب أغرار أخذوا ببعض أطراف النصوص، وقرأوا القرآن من دون فهم معانيه، وغالباً ما يخرج هؤلاء من محاضن خالية من منابع العلم، كثيراً ما تكون بيئات يغلب عليها الجهل والطيش، فينسحب التعصب الأعمى للقبيلة التي تقاتل على الشيء التافه، إلى التعصب للأفكار التي أخذوها بطرق ارتجالية، لم تتعمق في الدين وتأخذ بجميع أطرافه، ولا يبعد أن تجد أحدهم يختصر المسافات وبطريقة كيف تقيم الخلافة في خمسة أيام فيتوب يوم السبت، ويصلي يوم الأحد، ويتعلم العلم يوم الاثنين، ويفتي يوم الثلاثاء، ويكفر المسلمين يوم الأربعاء، ويقاتلهم يوم الخميس، ويريد أن يقيم الخلافة يوم الجمعة.. فتراهم يستعجلون الخلافة وهم يعملون بخلاف ذلك، ومع ذلك يظنون أنهم أول من اكتشف الدين وفهم حدوده، ولا قيمة لأقوال العلماء المجتهدين عندهم، فجعلوا من أنفسهم المخلّصين ومبعوثي العناية الإلهية، فهم

من سيعيدون صياغة الكون من جديد؛ لأن الناس في نظرهم في جاهلية، فالتكفير من أمامهم والنار من ورائهم، والجنة والنار حقوق محفوظة لهؤلاء الأغرار؛ كل الناس هلكى إلا هُم، فهم الفرقة الناجية!

- التوفيق بين الموادعة وآية السيف:

المراد بآية السيف هي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة:٢٩).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن النصوص الحاثة على استعمال الرفق مع أهل الكتاب وغيرهم قد نُسخت بآية السيف، على كثرة تلك النصوص، من ذلك ما ذكره القرطبي في قوله تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنفال:٦١)، قال: «قد اختلف في هذه الآية، هل هي منسوخة أم لا. فقال قتادة وعكرمة: نسخها ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة:٥)»[1]، وقال السمعاني: «روي عن الحسن وقتادة أنهما قالا: هذه الآية منسوخة بآية السيف»[2]، وذكر القرطبي ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٣٩/٨.

(٢) السمعاني أبو المظفر عبد الجبار، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم (الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ٢٧٦/٢.

﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:٤١) أنها منسوخة بآية السيف؛ في قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد[1]؛ ورد هذا القول آخرون، قال الألوسي في تفسير الآيـــة: «فيها تأكيد لما أفاده لام الاختصاص من عدم تعدي جـــزاء العمـــل إلى غـــير عامله، أن لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم، وعلى هذا فالآية محكمة غير منسوخة بآية السيف، لما أن مدلولها اختصاص كل بأفعاله وثمراتها من الثـــواب والعقاب، وآية السيف لم ترفع ذلك»[2].

وذكر ابن كثير، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦): «قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ..﴾ (النحل:١٢٥) الآية، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ (طه:٤٤)، وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٣٤٦/٧.

(٢) محمود الألوسي أبو الفضل، روح المعاني (بيروت: دار إحياء التـــراث العربـــي) ١٠/٨.

حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم»[1].

وقال المولى تبارك اسمه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الجاثية:١٤)، قيل: «نزلت قبل آية القتال ثم نُسخت، قال ابن عطية: ينبغي أن يقال: إن الأمور العظام، كالقتل والكفر، ... ونحو ذلك، قد نَسخ غفرانَه آيةُ السيف والجزية، وإن الأمور الحقيرة، كالجفاء في القول ونحو ذلك، يحتمل أن تبقى مُحكمة، وأن يكون العفو عنها أقرب للتقوى»[2].

وقد علق الإمام بدر الدين الزركشي في كتاب «البرهان»، على آيات الموادعة وآيات القتال بقوله: «ويعود هذان الحكمان، أعني المسالمة عند الضعف والمسايفة عند القوة، بعود سببهما، وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته»[3].

وما يحسن التنبيه عليه هاهنا، في مسألة نسخ آيات التسامح، أننا حينما نستقرئ أقوال التابعين والصحابة ومن خلال ما رأينا سنجد أن تلك الأقوال لا تعدو كونها آراء اجتهادية موقوفة، ولا يكاد يخلو أن تجد من يخالفها، ومع ذلك فقد اشتغل الاتجاه الغالي كثيراً بمقولة النسخ لآيات الموادعة، وجعل آية

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، ط٢ (دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) سورة العنكبوت، آية٤٦.

(٢) حمد الإدريسي أبو العباس، البحر المديد، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ٧/٩٤.

(٣) بدر الدين الزركشي (المتوفى:٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ (دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧م) ٢/٤٣.

السيف كأنها هي كل القرآن، ويعود الافتتان بفكرة النسخ لنــزعة المواجهة العنفية التي يجنحون إليها، والحقيقة لا ينقطع عجبي من القول بأن آية الـسيف جـاءت لتنسخ عشرات الآيات أنزلها الله في حسن الخلق وجمال التأدب مع (الغير)، الـذي يتفق مع نداء الفطرة، كأنما قُـطع اللسان بالسِّنان، وصار لآيـة الـسيف قـوة السيف، فبضربة واحدة حصدت عشرات الآيات والأحاديث الصحيحة!

يقول الأستاذ راشد الغنوشي في قولـه تعـالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦): «إن ما دار من جدل حول نسخ هذه الآية العظيمة أو نـسخ سواها من النصوص الناطقة بحرية الإنسان والناهية في احتجاج واستنكار عـن كل محاولة لسلبه تلك الحرية، وأن يكن ذلك من أجل الخروج من الكفر والنار والدخول في جنة الإيمان، نسخ تلك النصوص والاعتبارات الشرعية العظمـى بآيات الاجتهاد قد أثبت التحقيق المعاصر بطلانه»[1].

إن الذي تميل إليه النفس أن الدعوة إلى الله باللسان وبالمنهج الذي سـار عليه رسول الله ﷺ هو الأصل الذي يبنى عليه، وأن للقتال ظروفه ولا تنـافي، فلا غنى للأمة عن عامل القوة لحفظ الدين، وصون الأرض والعرض، ولا أرى ما يدعو لأن يحل أحدهما محل الآخر، ومن ناحية لا يصح أن تكـون آيـات التسامح مشجباً للتخلي عن فريضـة الجهـاد القتالي، وإسقاط آية الـسيف كمـا يروج له العلـمانيون، وعلى المُتناقِضَيْن واجب الاتِّباع، لا الابْتـداع، فلا يصح أن يأخذ كل طرف بما يوافق ميوله وهواه.

---

(١) راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ط١ (مركز دراسات الوحـدة العربية) ص ٤٤.

تجديد فنون الخطاب التقليدي

أولاً: طريقة الإلقاء:

١- بساطة اللغة وعدم التكلف:

إذا انتقلنا من لغة الأسلوب إلى أسلوب اللغة، فليس المطلوب من الداعية جماليات الأسلوب وحسب، ولكن سلامة اللغة أيضاً، والاستعانة بلغة الإشارات المعبرة، ويعد فن الخطابة والمحاضرات من أكثر الأساليب شيوعاً وأكثرها إنتاجاً في ميدان الدعوة اليوم، وما يحتاجه هذا الفن هو التجديد في طريقة العرض، فقد أصيب هذا الفن بالجمود منذ عصر التدهور الحضاري للمسلمين، الذي يمكن أن يؤرخ له من أواسط عصر الدولة العباسية الثانية، مروراً بعصر الدول والإمارات التي غلب فيها حكم العجم والموالي، وانتهاء بعصر الدولة العثمانية، ففي هذه الفترة غربت شمس الفصاحة العربية، وحلت محلها أساليب سكونية ونمطية تمثلت بالتالي:

- **الاعتماد على العامية بدل الفصحى** عند بعضهم، ومع أن المحتوى النصي مقدم على قالبه اللغوي في الدعوة إذا أدى الغرض، إلا أن العدول عن الفصحى يجب أن يكون مسألة اضطرار لا اختيار، إذ لا يمكن أن تقوم العامية مقام الفصحى في كل شيء، ناهيك عن أنها تمثل جهة بثقافتها ومفاهيمها وليس المجموع، والله يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(يوسف:٢)، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٥)، ووصفه بقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر:٢٨)، كأن فهم البيان محله اللغة العربية الفصيحة التي بها نزل القرآن، وأن العدول إلى غيرها لا يُؤمن معه الخطأ لعوجها وعدم استقامتها.

إني عندما استمع لأي داعية كان وأجد عوجاً في لسانه وكثرة أخطائه اللغوية والنحوية، يرفع ما حقه النصب وينصب ما حقه الرفع... إلخ اسحب ثقتي من معلوماته؛ لأن اللغة مؤشر مهم على قوة التمكن، ولو كان على علم لكان مما اكتسبه مهارة اللغة؛ لأنها داخلة عليه من جميع الاتجاهات، ولتأثيرها فقد جعلوها أحد مصادر التشريع، وقد روي أن أعرابياً سمع من يقرأ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ..﴾ (التوبة:٣) حيث قرأ (ورسولِه) بكسر اللام، فقال الأعرابي: برئت مما برئ الله منه، من المشركين ومن رسوله، فانظر كيف تحول المعنى؟

وقيل: إن أعرابياً أيضاً سمع من يقرأ بتحريف صيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ (البقرة:٢٢١) فقرأ (تَنْكَحوا) بفتح التاء والكاف فقال الأعرابي: لا والله ولو آمنوا.

وسمعت من يصلي بالناس ويقرأ في الفاتحة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة:٧) (أنعمتُ) بضم التاء، فتحول الضمير من مخاطب إلى متكلم، وبهذا تبطل الصلاة، والأمثلة كثيرة وليس هاهنا مجالها.

وقد يقع بعض الدعاة في مزالق تعبيرية نتيجة الاعتماد على العامية، كقول أحدهم: (صعب على ربنا يعذبك)، ولا يصح في حـــق الله مثل هذا التعـــبير؛ ولا ننفي أن العامية قد تنفع في بعض الأوساط، لا سيما تلك اللهجات الـــتي تتسم بالمرونة، والقدرة على التصوير التي تبسط للمستمع المعاني وتقربها، غـــير أن ذلك ليس مطرداً.

ولئن كان مرخصاً على نحو ما أن يأتي الشرح باللهجات المحلية، فإن نطق النصوص الشرعية بالعامية يقدح في علمية الداعية وتمكنه، وقبل ذلك وبعـــده يقدح في إخلاصه لدينه؛ لأن اللهجة قد تصرف النصوص عن معانيها، وقـــد وجد من يصلي بالناس ويقرأ (إن هزا لزو حز عزيم)، (مزبزبين بين زلك)، (إن يأقوق ومأقوق..)، فهل مثل هذا يصح أن يقال عنه داعية، وهو يزيف وعـــي الناس ويفسد ذوقهم، ويلقنهم معلومات خاطئة؟

- **الاعتماد أحياناً على الصنعة اللغوية** المولعة بالمحسنات البديعية كالسجع، وأحياناً إيراد الغريب بهدف التفاصح، وأعني بالغريب الغريب عن لغة الناس المتداولة، وليس فقط غريب المفردات المعجمية، وصحيح أن من حق الداعية أن يتفنن في انتقاء ألفاظه وصوغ الجمل والعبارات الجميلة التي تلائم المقام، ولكن الصحيح أيضاً أن اللغة الفصحى التي نعنيها هي السهل الممتنع، وليس التكلف في التقعير والتشديق، ونشدان الفصاحة لذات الفصاحة، فقد يرى بعضهم أن التزام قواعد الفصحى تعني التزام تلك اللغة الصارمة التي نجد فيها شيخ النحويين، الذي صنعها الخيال، وقد وجدنا بعضهم يلقي درساً فإذا سأله أحد المستمعين بصوت هامس، وأراد الشيخ أن يستوضح منه السؤال،

قال الشيخ: عجباً لأمرك يا هذا! أتحدث نفسك؟ هلا رفعت صوتك يا رجل! ويخرج الصوت مفخماً مجوَّداً، على نحو ما نسمع في المسلسلات التاريخية، وإذا أُخبر عن تعثر ابنه في صفة المسجد، قال: إن هذا لنا لغائض، هل أصابه أي مكروه؟ لطالما أرَّقنا أمر هذا الصبي. وفي مثل هؤلاء يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَـالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَـانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ**»[1]، وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِي مَجْلِسا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُم أخلاقاً، وَإِنَّ أَبغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِي مَجْلساً يَومَ القيامةِ: الثَّرْثَارونَ والْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**، قالوا: يا رسولَ الله، قد عَلِمْنَا الثَّرثَارون والْمُتَشَدِّقون، فما الْمُتَفَيْهِقونَ؟ قال: **الْمُتَكَبِّرونَ**»[2].

«(المتشدق): الذي يتطاول على الناس في الكلام، ويـتكلم بمـلء فيـه تفاصحاً، وتعظيماً لكلامه و(المتفيهق) هو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيـه ويُغْرِب به، تكبراً وارتفاعاً وإظهاراً للفضيلة على غيره»[3].

إن اللغة العربية الفصحى ليست في التفاصح الممجوج، ولكنها في مراعاة القواعد، أي التي لا ترفع ما حقه النصب ولا تنصب ما حقه الرفع، وهكـذا على أن تكون اللغة بسيطة ومألوفة، فهل ليست من العربية أن يقال نحو: ارفع

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٨٥٣) عن عبد الله بن عمرو، وصححه الشيخ الألباني.

(٢) جامع الترمذي (٢٠١٨) عن جابر، رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني: سند الحديث صحيح.

(٣) شرح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٣٧٠/٤.

صـــوتك يا (خالد) جيداً، ويقـــول في تعثر ابنه: المولـــى يرعاه، أو أرجو أن لا يكون به بأس، أو نحو هذا من البليغ الجميل السهل والمفهوم؟

إن الجمال في اللغة الدعوية يكمن في قوة الكلمة القريبـــة في وضـــوحها ودلالة حجيتها، مع القدرة على التوصيل، أما ذلك الضرب من التكلف فهـــو يشوه جمال اللغة، ويذهب برونقها، وينشغل الداعية في نحـــت العـــصي مـــن العبارات نحتاً يفرغ الفكرة من محتواها، ولا يلبث أن يـــدرك الـــسامع عنـــاء الترقيع، وفجاجة الأسلوب.

وقد ورد من حديث صحيح قول النبي ﷺ لرجل: «**يا فلان قم فاخطب**، فشقق القول، فقال له رسول الله ﷺ: **اسكت، أو اجلس، فإن التشقيق من الشيطان، وإن من البيان لسحراً**»[1].

قال صاحب اللسان: «واشْتِقاق الكلام: الأَخذُ فيه يميناً وشمالاً. واشتِقاقُ الحرف من الحرف: أَخْذُهُ منه. ويقال: شَقَّقَ الكلام إِذا أَخرجه أَحْسَنَ مَخْرَج. وفـــي حديث البـــيعة: **تَشْقِيقُ الكلام عليكم شديدٌ**، أَي التَّطَلُّـــبُ فـــيه لِـــيُخْرِجَهُ أَحسنَ مَخرج»[2].

ومن مظاهر التفاصح تعمد إيراد المهجور من اللغة بهدف استعراض مبلغ الثقافة والإطلاع، وأنه يمتلك مؤهلات التفوق على من يلم بدروسه؛ وأن ترد بعـــض الكلمات غريبة عفواً فهـــذا لا شيء فيه، مع محاولة تفكيك معانيها،

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة (الرياض: مكتبـــة المعـــارف) رقـــم (١٢٢٥).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، باب الشين (شقق).

أما إيرادها لإظهار جوانب النبوغ والتفوق فهذا ما لا يحتاج إليه المستمع، ويدخل في باب الرياء المحبط للأعمال.

- **ترديد المصطلحات الأجنبية أحياناً لغير حاجة**، وبما أن الداعية المسلم يمثل إرادة الشرع ويتكلم باسمه، فمن المهم أن تكون المصطلحات الشرعية مصدر ثقافته، وينبوع لغته، وعماد فلسفته، حيث ازدحمت المصطلحات الوافدة في حياتنا، وجاء بعضها كصناعة مخصصه لضرب المصطلح الشرعي وإفراغه من مضامينه، والأمثلة أكثر من أن تحصى..

والمشكلة أنه إلى الآن لا يوجد توجه جاد لسد هذه الثغرة، بل هناك قابلية لاستخدام الوافد أكثر من المصطلح المعجمي والشرعي، وصار (لوك) الأجنبي مظهر ثقافة بعض المثقفين، من هنا باتت تنتج المصطلحات في معامل الفكر التغريبي ليتم تصديرها إلينا كأمة مستهلكة، لا تسأل عن نوع هذا الوارد أو ذك، ويعود ذلك إلى وجود القابلية لتلقف كل غريب، ويحضرني في هذا السياق مثال ملفت حيث دأب الإعلام العربي على نطق (جزر القمر) بضم القاف والميم (القُمُر) على أساس النطق الفرنسي، وتعني (الجزر الفضية)، فيما ينطقها القمريون بما فيهم رئيسها النطق العربي (القَمَر) بفتح الفم وليس بضمه ومده ومطه، وسرت العدوى إلى بعض الدعاة، فصار بعضهم يستخدم بعض المصطلحات الأجنبية بمناسبة وبدون مناسبة، ويعدون ذلك مؤشراً على التمكن، وما هو إلا مؤشر على أزمة ثقة بالنفس، وتحولنا إلى نقاط فراغ تتسابق على احتلالها كل أمم الأرض دون أن نمتلك خطوط دفاع أو مشاريع هوية، وقد يكون أيضاً ناتجاً عن سوء فهم لمعنى التعاطي مع ثقافات الآخرين،

فأن تكون لدينا القدرة على تكلم اللغات الأخرى فذلك شيء محمود، ولكن فرق بين اللغة القومية واللغة المهنية، فاللغة القومية هي لغة التخاطب اليومي التي لا يجب أن تزاحمها أي لغة أخرى، وحاجتنا للغة المهنية كالإنجليزية تكون عند مزاولة المهنة المتعلقة بها وحسب، والعجيب أننا نتعلم من الغرب كل شيء إلا احترامهم لهويتهم والعمل على نشرها بين الآخرين، هذه فقط لا نتعلمها منهم!

وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على التحذير من المصطلح الموهم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٠٤) قال ابن عباس: «كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا، على جهة الطلب والرغبة -من المراعاة- أي التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سباً، أي اسمع لا سمعت، فاغتنموها وقالوا: كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: عليكم لعنة الله! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت الآية، ونهوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه»(١).

وقد ورد في السنة ما يبين أهمية تحري المصطلح الشرعي، فقد روى عقيل بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه تزوج امرأة من بني جشم فقالوا:

---

(١) تفسير القرطبي، تحقيق هشام سمير البخاري (الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م) ٥٧/٢.

بالرفاء والبنين، فقال: «لا تقولوا هكذا، ولكن قولوا كما قال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِمْ»**(١).

وعن عبد الله بن بريدة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«لاَ تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ»**(٢).

- **التكلف في تنغيم الصوت وتنميطه وفق إيقاع معين**، أو اللجوء إلى تقليد أصوات مشايخ آخرين، فهذا الاختباء تحت المؤثرات الصوتية عيب أسلوبي يكشف ضعف الخطيب؛ فالخطيب المتمكن مشغول عن قولبة الصوت بقولبة الأفكار وتقديمها على سجيته، وهذا يريح المستمع، فالمستمع قد يعاني لمعاناة الخطيب المتشنج، الذي يعلّب كلامه وفق مقاييس صوتيه معينة، فإذا اختل الإيقاع اختل توازن الخطيب وحدث الإرباك، ويجب التفريق بين صوت الخطيب الجِبلّي وبين المتصنّع؛ فالجبلي- والأمثلة كثيرة - له صوته الخاص، ونبرته المميزة، وليس فيه تكلف ولا تقليد، فهو يتحكم فيه خفضاً ورفعاً، مداً وقصراً.

٢- الاستعانة بلغة الجسد:

من المهم تفعيل لغة الجسد الذي من شأنه أن يسهل نقل الأفكار وتمثّلها، فالناس ليسوا فقط أسماعاً ولكنهم أيضاً أبصاراً تشاهد، وترقب وتقرأ، وتحلل، وقد دلت الدراسات أن نسبة تأثير لغة الجسد وفاعليتها في التأثير وشد الانتباه تصل إلى ٦٥%، أي أكثر من الكلمات تُلقى جافة، فإشارات اليدين، وتعابير

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم (١٩٠٦)، قال الشيخ الألباني: صحيح.
(٢) أخرجه أبو داوود رقم (٤٩٧٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

الوجه، من بسط، وقبض، ومن رسم علامات التعجب، والاستغراب، والفرح والغضب، ونبرات الصوت من خفض ورفع بما يتلاءم مع نوع الفكرة وأهميتها، كل هذه روافد دلالية ذات قيمة تأثيرية مهمة بالنسبة للخطيب، ولغة الجسد فوق أنها مؤشر الخطيب على صدق تجربته الوجدانية التي يعيشها، هي أيضاً موهبة ليس كل الناس يجيدها، فقد تتناثر الأفكار وتخرج ميتة من فم خطيب متخشب رغم خطير ما قد يتحدث عنه.

وقد كان النبي ﷺ إذا خطب كأنه منذر جيش، كما يصفه الحديث، وفي هذا التعبير كفاية للتدليل على أي نوع من الإلقاء يحتاجه الخطيب لكي يكون مؤثراً؛ عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: «...إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»، وَيَقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى..»[1].

ومشهد آخر ينقله ابن عمر، رضي الله عنهما، عن خطابة النبي ﷺ يدل على درجة من التفاعل مع مضمون الكلام، إلى حد يهتز معه جسد النبي ﷺ ويضطرب المنبر؟

عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «**يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ**، وَقَبَضَ بِيَدِهِ، فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا، ثُمَّ يَقُولُ: **أَنَا الْجَبَّارُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ**»، قَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم، انظر مشكاة المصابيح، رقم (١٤٠٧)؛ أخرجه بن ماجه وغيرهما.

«ويتميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن يساره حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني أقول: أساقط هو برسول الله ﷺ»[1].

وشرط التأثير في ذلك أن تكون لغة الجسد متلائمة مع منطوق الكلام، فلا يقابل الخطيب حرارة الفكرة ببرود الأعصاب، ولا ينفعل في موقف حقه الهدوء والانبساط، وأن تتدرج نبرات الصوت خفضاً ورفعاً مع قوة الفكرة وضعفها، فإما أن يرفع أفكاره إلى مستوى صوته أو يخفض صوته إلى مستوى أفكاره، ومن التقليد البائس أن يعلو صراخ الخطيب في الموضوع التافه، وأن يشيع ارتفاع الصوت كمؤشر على جودة الخطيب وقوة تمكنه، والأفضل في كل الأحوال هو الانسيابية والاسترسال مع الخواطر والأفكار، وحضور صدق الإيمان ويقين الإخلاص مع القيم التي يرشد إليها الخطيب.

وقد لاحظنا في حديث سابق أن الإشارات الجسدية مطلوبة في غير الخطابة كذلك، قال ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»، وفي حديث آخر قَال ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ** -ثَلاَثًا- **الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ** -أَوْ- **قَوْلُ الزُّورِ**»، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ»[2].

---

(1) أخرجه ابن ماجه، في سننه رقم (٩٧٠)، وصححه الألباني وأورده في السلسلة الصحيحة.

(2) متفق عليه، البخاري رقم (٥٩١٨)؛ مسلم رقم (٢٦٩)، وأخرجه غيرهما.

وقد حرص الراوي على إيراد هذه الحركة الدعوية لمنط الجلسة؛ لأن فيها معاني إضافية لم تكن لتصل لو لم يجلس النبي ﷺ بعد أن كان متكئا، وفهم منها أن شهادة الزور عظيمة من العظائم لا يجب أن يُستهان بها، وبهذا ندرك كم هي معبرة لغة الجسد، ولأهميتها دخلت ضمن علم اللسانيات وصارت تدرس كلغة يمكن التخاطب بها بين الأقوام المختلفة، بل ودخلت قراءة الملامح وردود الأفعال العضوية ضمن القرائن الجنائية في الكثير من دول العالم، وما ذلك إلا لأهميتها.. وفي القرآن الكريم نجد لغة الجسد ممثلة في الأبصار الشاخصة، والقلوب الواجفة، والوجوه المسفرة والضاحكة، والوجوه الخاشعة والباسرة، إنها قراءات معبرة تغني عن التعبير عن الحالات النفسية التي يعيشها الناس يوم القيامة.

- ومن لغة الجسد الاتصال البصري بتوزيع النظرات بين أفراد الجمهور؛ لأن الكلام موجه للجميع، وتوزيع النظر مع ميول الجسد يشعر المتلقين بأن الخطيب يقدر وجودهم معه من كونه يكلمهم لا يكلم نفسه، ينشد قناعاتهم لا يتفاعل فقط مع قناعاته، فينشئ بين الطرفين حالة من التعايش الفكري والوجداني، وبه يستطيع الخطيب أن يقيس حالات الرضا وعدمه من تفحص لغة الوجوه، فإذا وجد علامات الرضا استرسل في عرض فكرته، وإذا أدرك تململاً عرف أن هناك خطأ فيعدِّل في كلامه أو يعدِل عنه.

وتحويل النظر مع الجسد يرمز إلى وجود حيوية وثقة بالنفس؛ لأن التخشب علامة على الخجل والتوتر والخوف، وهذا يجد ذاته يقلق الجمهور أيضاً.

٣- مخاطبة الناس بما يفهمون:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ..﴾ (إبراهيم:٤)، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان:٥٨)، من فقه الداعية أن يعرف من يخاطب، وأن يعرف أن لغته وأفكاره يجب أن تنتظم في المستوى مع سلك عقول الناس، فيرتقي بلغته وأفكاره إذا كان من يخاطبهم من النخبة، ويبسط لغته وأفكاره مع القواعد السطحية، وهذا على الإجمال، وإلا فلدينا شرائح مختلفة، تقوم على اختلاف الجنس، والفئات العمرية، واختلاف الثقافات، ولا أعني باللغة هنا مجرد الألفاظ بل تتعداها إلى الثقافات الخاصة، والمذاهب الدينية والفكرية.

وقد تجد من الخطباء والمحاضرين من يبني حديثه على واقع فهمه هو، ويسترسل في الكلام وهو إنما يحدث نفسه ويتفاعل معها، بينما الناس من حوله لا يدرون عن أي شيء يتحدث؛ لأنه ببساطة لم يشرح المفاهيم ويحدد الوقائع، ويضع الأرضية المشتركة ليقيم عليها التراسل بين مدركات الطرفين، وقد وجدنا أهل مدين يتخذون من فهم الخطاب تعلة للتهرب ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٍ﴾ (هود:٩١)، والواقع إنما قالوا ذلك احتقاراً له واستضعافاً، ومحاولة قلب حقيقة ما فهموه عنه على وجهه، بدافع الجدال والتكذيب، قال محمد أبو السعود في تفسير الآية: «﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه، أي ما نفهم

مرادك، وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين، على أحسن وجه وأبلغه، وضاقت عليهم الحيل، وعيت بهم العلل فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً سوى الصدود عن منهاج الحق، والسلوك إلى سبيل الشقاء، كما هو ديدن المُفحم المحجوج، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد، فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، وأدمجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب، ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة»[1].

إن من الغفلة أن يتحدث الداعية عند الأطفال بلغة المناطقة وأهل الرأي، وعند أهل الوبر بثقافة أهل الحضر، أو يتحدث عن فلسفات أهل العقائد الفاسدة عند أناس يقرون لله بالعبودية على الفطرة السليمة، فينثر عليهم من كنانته من شبهات وأباطيل ما ليس لهم بها سابق عهد ولا معرفة، ثم يتركهم بعد أن يكون قد قلب جهات التصور عندهم نحو مغاليق تستعصي على الفهم، وقد يكون من الصعوبة التفلت منها، عن أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه»[2]. وعن المقدام بن معد يكرب مرفوعاً: «**إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم ويشق عليهم**»[3].

---

(1) تفسير أبي السعود (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٤/٢٣٥.
(2) أخرجه البخاري موقوفاً، رقم (١٢٧).
(3) تخريج السيوطي، ضعيف، انظر ضعيف الجامع، حديث (٤٦٢).

قال ابن حجر: «إن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود: ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1].

وقد ينزل الداعية في قرية غالبها أميون فيتحدث إليهم عن النظام العلمي وتعقيداته، أو عن (اللوبيهات) المتنفذة في العالم، وإن كان مثل هذا الربط مطلوباً إلا أنه سيكون خرقاً أن يبني قصراً على كومة من القش، وهاهنا يبرز ذكاء الخطيب والواعظ، ودقة ملاحظته، وفي تقديري أنها هبة ربانية، أن يتكيف الفرد بالسجية مع الجو الذي يعيشه، ويبدأ من حيث انتهى إليه الناس في تفكيرهم ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ (البقرة:٢٦٩). ومن التفسير الحكمة: أن تضع الأمر في مكانه الصحيح، قال القرطبي: «لم ينتفع بالآيات حيث لم تكن معها حكمة»[2].

إن المدى المطلوب في التعامل مع المقامات المختلفة يتجاوز مسألة تحاشي التصادم مع العقل، إلى المعايشة مع روافد الثقافة والانطلاق منها؛ ليكون الاحتجاج عن طريقها أبلغ، ولذلك لما اشتهر أهل مصر بالسحر كانت معجزة نبي الله موسى، عليه السلام، متلائمة مع الثقافة، فتكون مفهومة وغير غريبة ويسهل على الكفار التعاطي معها، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الشعراء:٤٥)، لقد أثارت هذه الآية اهتمامهم، وحركت

(١) أخرجه مسلم، رقم (١٤).
(٢) تفسير الطبري، ٣/٨٧.

فيهم نوازع الثقة بالنفس، وقوى عندهم الرغبة في المواجهة وظهرت منهم لغة التحدي، وهذا استدراج دعوي يصل بالطرف الآخر إلى المواجهة مع الحقيقة: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (الأعراف:١١١-١١٢)، والنتيجة أن فرعون أعجب بهذا التحدي لأنه مع قومه ممن يجيدون صناعته ويفهمون أسراره فلم يكتف بمناظرة جزئية، بل أرادها عامة ليشهد الناس جميعاً قدرته في التغلب على موسى: ﴿.. فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ (طه:٥٨-٦٠)، وبهذا الجمع أقيمت الحجة على فرعون وقومه؛ ولو كانت المعجزة غريبة لتهرب فرعون منها، وعزف عن مجاراتها.

وكانت معجزة سيدنا عيسى، عليه السلام، من نوع المنجز الحضاري الذي يعتد به الناس في زمانه وهو الطب، ليثير بذلك اهتمامهم ويكون باعثاً للتطلع، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى: ﴿..أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران:٤٩).

ولما كانت الفصاحة هي منبع فخر العرب واعتدادهم جاء القرآن بالبيان المعجز ليجبرهم على الالتفات إلى الدعوة ويلجمهم بالحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة..

وكان منطلق حديث نبي الله شعيب، عليه السلام، مع قومه من الميـــزان والمكيال، كونهم أهل تجارة.

ويدخل ضمن هذا مراعاة الظروف الوقتية كالمناسبات الطارئة أو الثابتة، من أفراح وأتراح مما يجده محل اهتمام المخاطبين ومنصرف شغلهم، وهذا شرط للحصول على التفاعل والإيجابية، فمن الخُلْف مثلاً أن يتحدث الداعية في يــوم فرح عن عذاب القبر وأهوال يوم القيامة، أو يتحدث عن الـــسِّحر والـــسحرة والناس في شغل عن أحداث مزلزلة استحوذت على تفكيرهم، فيكون انعكاساً لما يدور في الواقع لا ارتكاساً يدور معه الواقع: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ...﴾ (يوسف:١٠٨).

وقد يجد الداعية أنه ما من بد من أن يطرق موضـــوعاً غـــير ذي صـــلة بالحدث العارض، إما لأنه لم يكن مُعداً لحديث المناسبة، أو لأنه مهـــم وهنـــا تكمن ألمعيته في الوصول إلى مبتغاه عن طريق الاستهلال بحديث المناســـبة، إلى الموضوع الذي أعد نفسه للحديث فيه.

٤- التدرج في الخطاب حسب درجة التقبل:

إن الله تبارك وتعالى عندما أنزل هذا الدين أنزله كاملاً ليكون مستودع الخير كله؛ ولأن الإنسان خلق ضعيفاً فمهما اجتهد ليترقى في كمالاته فسيعجزه شمولاً واتساعاً، وهذا عندما يريد أن يجمع بين جميع فرائض الدين ومندوباته في وقت واحد، وأما فرائضه فإن الله يقول: ﴿..لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ...﴾ (الطـــلاق:٧)، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، أما ما عدا ذلك من فضائل الأعمال فهي تشغل أضعاف مساحات زمن الفرد المتاح، فمن أقام الليل كله لزم أن يترك العمل بالنهار، ومن تفرغ لصلاة الضحى سائر وقت الضحى لزم أن يترك ما أوجبه الله عليه من العمــل والسعي على الأهــل وعمارة الأرض؛ نعم قد يلم بأطرافــها كلها ولكن ليس في وقت واحــد، فمن ظن أنه سيقوم بشرائع الدين كلها جمــلة واحــدة، فقد حمل نفســه ما لا تحتمل، قال النبي ﷺ: **«إنَّ هَــذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فيه بِرِفْقٍ، ولا تُبَغِّضْ إلى نفسك عبادة الله، فإنَّ المُنْبَــت لا أرضًا قطَــعَ، ولا ظَهْــرا أبْقَــى»**[1]، وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبــي ﷺ قال: **«إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيْنُ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ، فَسَــدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»**[2].

من هنا كان على معلم الناس الخير أن يقتصد في التوجيهات، وليعلم أنه إذا رغب الناس في طاعة فلا يفرط في التوسع فيها؛ لأنها ستكون على حساب عبادات أخرى، ورسالة من رسائل التعجيز والتيئيس، وما أكثر القصص الــتي تتحدث عن رجل أو امرأة يقوم الليل لا يفتر ويصوم النهار لا يفطر، ويختــم القرآن كل يوم، ولا ينام حتى يسبح الله ألف مرة، ويحمده ألف مرة، ويكــبره

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى، وفي ذيله الجوهر النقي، ٣/١٨؛ في اللسان: «رجل مُنْبَتٌ أي مُنْقَطَعٌ به وأَبَتَّ بعيرَه قَطَعَه بالسير والمُنْبَتُ في حديث الذي أَتْعَبَ دابَّتَه حتى عَطِــبَ ظَهْرُه فبَقِي مُنْقَطَعاً»، لسان العرب مادة (بتت).
(٢) أخرجه البخاري، (٣٩).

ألف مرة... إلخ، ويا له من فضل عظيم ولكن من يدري لعل هذا الإفــراط في جانب من الطاعات يقابله تفريط في أخرى هي أهم منها، كالعبادات المتعدية إلى الآخرين، من إعانة المحتاج، والسعي في نصرة المظلوم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسعي في الأرض، عن إبراهيم التيمي قال: لقي عيسى بن مــريم، عليه السلام، رجلاً، فقال له: «ما تصنع؟ قال: أتعبد. قال: من يعولك؟ قــال: أخي. قال: أخوك أعبد منك»[1].

وكان النبــي ﷺ يقــدم للنــاس واجبــات الدين أولاً رفقاً بهم، عن طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، نسمع دوي صوته ولا نفقــه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: «لاَ، إلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ». فقَــالَ: هَــلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ فقَالَ: «لاَ، إلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ». وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لاَ، إلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ». قال فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»[2].

وإذا كان المخاطبون حديثي عهد بالدين فإن من سنة محمد بن عبــد الله ﷺ تقديم الفرائض أيضاً بشكل متدرج كما ورد في حديث معاذ، رضي الله عنــه؛

---

(١) المجالسة وجواهر العلم، ٣/١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٦)؛ مسلم رقم (١٠٩) واللفظ لمسلم.

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لمُعَاذ بْنِ جَبَلٍ حينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: « **إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ؛ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ منْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه حِجَابٌ**»(١).

وموضع الاستشهاد في قوله « **فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلكَ فَأَخْبِرْهُمْ..**» ففيه سياسة التدرج، والعمل بسياسة النفس الطويل، وعدم تقديم الإسلام جملة واحدة؛ وأدلة التدرج كثيرة من الصعب دفعها أو منعها ممن يقول بأن التدرج كان في بداية الإسلام وهو في حكم المنسوخ بعد أن أكمل الله دينه وأتم نعمته، وهذا فهم قاصر؛ لأن علة التدرج باقية، فالإنسان هو الإنسان، والحالات هي الحالات، والإيمان يبدأ نقطة ضوء في القلب ثم تنمو وينمو معها حب الدين وقابلية الالتزام، وإذا كان التدرج قد حدث والوحي ينزل فهو من باب أولى اليوم بعد أن صار الإنسان عرضة لسيل الفتن المتدفقة، ولن يكون مبدأ الكل مقابل الكل سوى فتنة جديدة ولكنها فتنة في الدين هذه المرة.

والقرآن نزل منجماً، ونزلت بعض الأحكام متدرجة، كحكم تحريم الخمر، روى ابن جرير في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ

(١) أخرجه البخاري.

﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ (البقرة:٢١٩) قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم يقدم في تحريم الخمر، قال: ثم نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ..﴾ (النساء:٤٣)، قال النبي ﷺ: إن ربكم يقدم في تحريم الخمر، قال: ثم نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ..﴾ (المائدة: ٩٠) فحرمت الخمر عند ذلك»[1].

وعودة إلى النظر في المستويات الأسلوبية في الآيات، فالأولى لأنها ممهدة لتحريم الخمر اشتملت على حديث المنافع، وهو ما يعود على الناس من الأرباح من تجارتها، ولم تتضمن الحديث عن الرجس وكونها مدخلاً للشيطان؛ لأنه لا يتوافق مع مسألة تركها حلالاً، ولأن الإسلام يجيب عما قد يشكل عائقاً في المستقبل، فيضع المعادلة بين المنفعة أمام المفسدة ويرجح مضارها تهيئة للنفوس، وفي الآية الثانية يُظهر جزءاً من مفاسدها في تشويشها على العبادة وحدوث التخليط الذي لا يستقيم مع استحضار القلب والقنوت لله، وكلها أساليب تصعيدية متدرجة إلى أن يأتي التحريم النهائي المتمثل في آية التحريم ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ...﴾.

ويقاس على ما سبق من التدرج مع حديث العهد بالدين، يقاس عليه الأخذ بسنة التدرج مع المسلم الجاهل، أو العاصي المسرف على نفسه، فهذان

---

(١) تفسير سورة المائدة:٩٠، ٣٦٩/٢.

هما مجال الدعوة لتصحيح التصور لمعنى الانتساب للدين ومن ثم الالتزام بالفرائض ثم المندوبات.

وإذا وجد من يقبل على الواجبات كلها من أول عهده بها فهو فضلٌ من الله ونعمة، وليس الإنكار إلا على إلقاء التكاليف كلها مشروطة بوقت واحد لمن لا تسعفه همته على التقبل، فيكون عليه شاقاً، وإنما يريد الله من العبد صدق التوجه وسلامة النية، فإذا أراد الله به خيراً أكمل له دينه وأتم عليه نعمته.

٥- تضمين الخطاب مفردات الحياة المعاشة:

كثيراً ما تجد من يغلب على خطابه أسلوب الترهيب والترغيب، أو حديث الثواب والعقاب لتتوقف مهمته عند قيادة الناس إلى العالم الآخر، ويدير ظهره لعالم الشهادة، ويستمر حديث الدنيا مقروناً بعبارات الذم والتحقير، وأفضل من الإقبال عليها أن تترك شاغرة للشيطان وأوليائه، وهو ما حدث فعلاً، فكثيراً ما كان العلماء والمصلحون يساهمون في قيادة الثورات ضد الظلم ثم يترك الحكم لمن هم أكثر ظلماً، حتى صار الإسلاميون يتهمون بأنهم يريدون الوصول إلى سدة الحكم، فينفون ذلك بشدة، وكأن الحكم حقوق محفوظة لغيرهم.

أما الدين فإنه جعل القيام بشؤون الدنيا جزءاً من العبادة، يدل على ذلك الأمر المذكور في الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك:١٥)، ومن معاني التسليم لله عز وجل العمل بسنة التسخير: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:١٣)، وربط المولى بين عبادته

ومواجهة احتياجات الناس الحياتية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٦)، ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ (الحج:٢٨)، وشواهد الباب أكثر من أن تحصى.

وقد كان من ضمن رسالة الأنبياء تبصير الإنسان بمهمة الاستخلاف في الأرض وإعمارها، واكتشاف ما أودع الله له من قوانين التسخير: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..﴾ (هود:٦١)، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ طلب منكم عمارتها، وقد جاءت الكتب السماوية دساتير منظمة للحياة، لعلاقة الإنسان مع نفسه، ومع خالقه، والكون من حوله، وما من نبي إلا وزاول حرفة خاصة يعول بها أهله كسائر الناس.

فمن الحكمة أن تتضمن لغة الخطاب الدعوي مفردات المنافع الدنيوية، ومشتملة على الحياة ومظاهرها، وكما نجدها من استقراء الآيات الكريمة مثل: (إعمار، تسخير، قوة، أموال، بنين، أمطار، أنهار، زراعة، جنان، وحتى المستلزمات البسيطة)، وقد أخطأت العلمانية والفكر اللاديني عموماً عندما أطلقوا على الدين أفيون الشعوب، ظناً منهم أنه يدعو للانكفاء وترك عمارة الدنيا وحراثتها، مع أن القرآن دعوة مستمرة خالدة لقيام الإنسان بتحقيق

سيادته على الكون، وبسط يده على ما أودع الله له فيه من المكنونات فصار العمل جزءاً من عبادة الله، يثاب الإنسان عليها ويأثم بتركها، وقد استمر فهم المسلمين لدينهم على هذا النحو؛ لأن العمل وتدبير شؤون الحياة شرط من شروط الاستخلاف من أجل استمرار المسيرة الإنسانية.

وعند التأمل في خطاب الأنبياء لأقوامهم، سنجد الحياة ومفرداتها، واحتياجات الناس داخلة في أدوات التبليغ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ (هود:٥٢)، «أي: شدّة مع شدّتكم. وذلك أن الله عزّ وجلّ حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود، عليه السلام: إن آمنتم (بالله وحده وصدقتموني) أرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالاً، ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت فيلدن، فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة في البدن»[1]، وفي هذا دعوة صريحة للإنسان للعمل، وتقدير لنزوعه إلى امتلاك وسائل القوة، وإلى حيازة المال، والجاه، والبنين، وسائر عناصر الحياة ومقوماتها، ولأن قوم هود كانوا أصحاب زرع وبساتين وأهل قوة جاءهم هود، عليه السلام، من ناحية دنياهم.

قال صاحب الكشاف: «كان قوم هود، عليه السلام، أصحاب زروع وبساتين وعمارات حراصاً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء.

---

(١) تفسير البغوي، ١٨٣/٤.

وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة مستحرزين بها من العدو مهيبين في كل ناحية»[1].

وهذا نوح، عليه السلام، يتحدث مع قومه بلغة الدنيا وحاجياتها: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (نوح: ١٠-١٢)، قال الإمام الطبري: «قال ذلك لهم نوح، لأنهم كانوا فيما ذُكر قوم يحبون الأموال والأولاد. عن قتادة، قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا...﴾ إلى قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ قال: رأى نوح قوماً تجزّعت أعناقهم حرصاً على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة»[2].

إن حب الدنيا ومتاعها ميل غريزي فطري، من الخطأ تجاهله، والتعلق بمتاع الحياة إذا لم يؤدِّ إلى طغيان وخلل في التصور لا بأس به في الدين، فقد رأينا من النصوص السابقة مفردات الحياة النابضة، ولغة عملية تجسد حركة الواقع وتعمد إلى ضبطه وتوجيه مساره، ولا تمانع من التجاوب مع الميول الغريزية للإنسان نحو التمتع بطيبات الحياة الدنيا، ويكون التعاطي مع الحياة الدنيا وزينتها وفق موجهات سماوية كفيلة أن تحفظ للحياة توازنها، ولا ينساق الإنسان في الانحرافات المدمرة، إذ أن معرفة ما يصلح الخلق وما يفسدهم ليس لأحد غير الخالق سبحانه، وتلك هي العلاقة الجدلية بين الدين والناس المحكومة بالمصلحة والنفع.

---

(١) انظر الزمخشري، الكشاف، سورة هود، آية ٥٢.

(٢) تفسير الطبري، سورة نوح، من ١٠-١٢.

إن نظرة الناس إلى مسألة الإقبال على الدنيا واقعة بين الإفراط والتفريط، فمن يرى أن الدنيا فرصة لا تتكرر ومن حق الإنسان أن يتمتع بما قدر عليه، وأن المحرم الوحيد هو الذي لا سبيل للوصول إليه، وآخر ارتبط مفهوم الالتزام في ذهنه بذم الدنيا وزينتها فصار بطريقة أو بأخرى يلزم الناس ما لا يلزم، ويرفع المباح من نعيم الدنيا إلى درجة المكروه، والمكروه إلى درجة المحرم، والله يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢).

وهذا كمن يشهد أن الدين والدنيا على طرفي نقيض، وأن ملخص الواجب الديني يتوقف عند الصد عن الإقبال على الدنيا، وكيل الشتائم لمتعها وملذاتها، وترغيب الناس في الانقطاع والتبتل بحجة الزهد، وليس هذا من الزهد في شيء، فالزهد أن تملك الدنيا إن ملكتها لتجعلها في يدك لا في قلبك، تصرِّفها أنت لا تصرِّفك هي، وأن تأخذ الشيء من حلِّه وتضعه في محلِّه.

٦- الإسهام في معالجة هموم الناس اليومية:

إن دعوة الإسلام لا تقف عند حد عرض موقف الإسلام من الدنيا وعمارتها، وجَعْل ذلك واجباً دينياً فلا رهبانية في الإسلام، بل الأمر يتجاوز ذلك إلى الإسهام في معالجة هموم الناس اليومية، وقد كانت حياة النبي ﷺ مليئة بمعايشة هموم الآخرين ومن بعده الخلفاء الراشدون، ومن صفات الداعية الناجح أنه يبحث عن دوره المجتمعي الذي ينتظره الناس، فرب قيراط عمل خير من قنطار كلام، ورب صنيعة من صنائع المعروف أبلغ في الموعظة من خطب قس

ابن ساعدة؛ وجمال الإسلام ليس فقط في تقديم مواعظ الزهد التي تعني عدم التهالك على الدنيا، ولكن أيضاً في حسن إدارة الدنيا بالأمانة والعدل وإشاعة مبدأ التكافل والإيثار بين الناس، وبعض الناس قد لا يتفهم جماليات الدين إلا من خلال العطاء المادي المباشر ولو علم الداعية لوجد أن من الناس من يُجرّ إلى الله بعقله، ومنهم من يجر إلى الله بقلبه، ومنهم من يجر إلى الله ببطنه، وهم أولئك الذين ينظرون إلى ما يخرج من يد الداعية أكثر مما ينظرون إلى ما يخرج من لسانه، وقد اعترف الإسلام بهذه الشريحة وسماهم المؤلفة قلوبهم، وإن لم يتأت التأليف بالعطاء المادي المباشر، فلا أقل من السعي للإسهام بتأمين حاجات الناس من غير طريق، والقرآن الكريم يحدثنا عن أدوار حياتية قام بها بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، منها (الناقة) معجزة نبي الله صالح «كانت الناقة لها شرب، فيوم تشرب فيه الماء تمر بين جبلين فيرجمونها.. ثم تأتي فتقف لهم حتى يحلبوا اللبن فيرويهم، فكانت تصبّ اللبن صبًّا، ويوم يشربون الماء لا تأتيهم»[1]؛ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الشعراء:١٥٥). وهذا الشرب من اللبن الوافر إلى جانب كونه مدخلاً دعوياً صالحاً، هو دليل على عناية الدين بالناس وأنه لا يغفل معايش الناس ولا يهمل نظرتهم للدنيا ومتطلباتها.

وإذا كان الطب معجزة عيسى، عليه السلام، قد جاء موافقاً لنوع التطور السائد، كما سبق، فقد جاءت كذلك من نوع المنافع الحياتية المتصلة بحاجات

---

(١) تفسير الإمام الطبري، ٥٢٦/١٢.

الناس، فكان يبرئ الأكمه، والأبرص، ويحي الموتى في واحدة من أهم الخدمات الإنسانية الملحة.

ونتعلم من قصة الخضر، عليه السلام، مساعدة المساكين أصحاب السفينة بإفسادها، لكي لا يأخذها منهم الملك غصباً، وإقامة الجدار ليخفي كنز اليتيمين في المدينة، تلك المدينة التي أبت أن تضيف الخضر وموسى، عليهما السلام، و لم يمنع ذلك أن يقوما بواجب النفع للآخرين؛ ونتعلم من قصة ذي القرنين إقامة السدين مجاناً لحماية القوم الذين نالهم الأذى من يأجوج ومأجوج؛ ونتعلم من قصة يوسف أنه طلب إدارة دفة الاقتصاد من أجل مساعدة المصريين في اجتياز مجاعة محققة وذلك بقيامه بتدبير شؤون الدولة في سني الخصب والقحط.

ومن العجيب أن نجد الإسلام يتجاوب حتى مع ما يمكن عده من الطلبات الترفيهية، فهاهم بني إسرائيل يسألون موسى البقل، والقثاء، والثوم، والبصل، كأنما الدعوة ملزمة بتوفير مستلزمات المطبخ أيضاً: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ..﴾ (البقرة:٦١)، قال ابن جرير: «اهْبِطُوا مِصْراً من الأمصار، فإنَّ لَكُمْ ما سألْتُمْ فلما خرجوا من التيه رفع المنّ والسلوى وأكلوا البقول»[1]. لقد تم تلبيتها كأمر

---

(١) الطبري، تفسير سورة البقرة آية (٦١).

من الأمور الطبيعية، وإنما عِيب عليهم استبدال الذي هو أدنى من بقلها وقثائها، بالذي هو خير (المن والسلوى) وهو ما يعني أن الإسلام دين متفاعل مع حاجات الناس، فالدعوة مثلما هي رابط فكري وعقدي بين الخالق والمخلوق، هي أيضاً ملتمس رزق، وتأمين مصالح، وجلب منافع، ومقتضاه أن يكون التعبير عن الهموم المعيشية للناس حاضراً أيضاً في خطاب الداعية، وجزءاً من مهام رسالته، وقد جعل الله الرزق محل اعتبار، ومجال إغراء وترغيب، عندما ربطه بالتقوى فقال: ﴿..وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ (الطلاق:٢-٣)، وربطه بالعبادة: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ (قريش:٣-٤).

فكانت المصلحة وحديثها باباً صالحاً لمخاطبة عقول الناس، وتعزيز الدافعية لديهم، وليس الناس كلهم على نمط واحد في التفكير، فمن الناس من يجذبه حديث المكاسب وجني الأرباح ولا يهمل الدين هذه الخاصية، فإذا كان من الناس من يعبد الله حباً فيه، أو طاعة لأوامره، أو خوفاً من ناره، فإن منهم من يعبده طمعاً في عاجل رزقه وآجل نعيمه، ولا تعارض بين نص المصلحة ومصلحة النص، ولا ريب أن لهذا لغته في الخطاب كما للآخر.

إن مقومات الاستجابة لاسيما عند رقيقي الإيمان لا تقوم على مجرد الإذعان القهري، ولكن أيضاً على باعث المصلحة الظاهرة التي هي غريزة في النفس، وهذا يقتضي التفريق في الطرح ومخاطبة النفوس حسب ميولها وتقييمها للأمور، وإن أخذ بالناس بمعيار واحد ونهج واحد خلل كبير وقصور لا ينبغي

في حق الداعية سائس النفوس، وصائد القلوب إلى الخير، ويشمل ذلك حديث المصالح المجتمعية بما يقتضي التزام الدين منهجاً وسلوكاً من تحقيق الأمن والمساواة، وتحقيق الرفاه ورغد العيش، وإشاعة المحبة، والتكافل بين الناس.

٧- مخاطبة الناس على قدر منازلهم:

اعترف الإسلام بالمؤثرات الوظيفية والاجتماعية للفرد، وقدَّر دورها في تحديد رؤى الفرد وتقييمه للأشياء، فيصير الناس بذلك على منازل، فرب طريقة ما في التخاطب أو في التصرف تجاه (الغير) تؤخذ عند الناس على محامل شتى، فتفسر عند هذا بمفهوم وعند آخر بمفهوم مختلف.. قد يكون عند هذا سلوك ما به من بأس وفي حق آخر إهانة.. قد يرى المسكين الثياب المتواضعة على الرجل الغني تواضعاً، ويراها غني مثله بخلاً، ويراها السلطان في مجلسه إهانة في حقه.

إذن هذا التباين في أقيسة الناس للأمور لها أسبابها الخاصة، التي تحددها ظروف النشأة، فتختلف بسببها الرؤى ويترتب عليه اختلاف مراتب التصرف كالتالي.

- حفظ مقامات المخاطبين:

روي عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أن سائلاً مر بها فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل، فقيل لها في ذلك، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ**»[1]، وفي لفظ قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نُنْزِلَ الناس منازلهم»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم (٤٨٤٢).
(٢) صحيح مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ١/١١.

إن السمت المتواضع للرجل الأول مؤشر على أن صاحبه لا يحفل بنفسه، وحري به أن لا ينتظر ذلك من غيره، وقد لا يرى في إقعاده مكرمة أو ربما وجد فيه عكس المراد، بينما لا يبدو الأمر كذلك مع السائل الثاني.

والحديث التالي يفسر معنى الحديث الأول بشكل أوضح، قال النبي ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**»[1]، قال المناوي: «إذا أتاكم كريم قوم» أي رئيسهم المطاع فيهم، المعوّد منهم بإكثار الإعظام وإكثار الاحترام (فأكرموه) برفع مجلسه، وإجزال عطيته؛ لأنه تعالى عوّده ذلك، فمن فعل به غيره فقد احتقره وأفسد عليه دينه»[2]. وقال السيوطي في شرح ابن ماجه على الحديث: «لهذا الكلام معنيان، الأول أنه إذا كان شخص ذا كرامة في قومه بأن كان رئيساً وسيداً فيهم فأكرموه، فإنه إذا لم يكرمه كان له ولقومه ضغن وحقد منه، ويحصل له الأذى من جهتهم هذا إذا كان القوم جهلة، ولكن ينبغي أن يحمل هذا الأمر بالإكرام على ما إذا لم يحصل له ضرر في دينه، فإن تبجيل الكفر كفر، وفي الحديث: **من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام**، هذا إذا كان الرجل شديداً في دينه»[3].

وفي قصة وفد عبد قيس: «..قدمنا على رسول الله ﷺ فاشتد فرحهم، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا، فقعدنا، فرحب بنا النبي ﷺ ودعا لنا ثم نظر

---

(١) عن ابن عمر، رضي الله عنهما، (صحيح) السلسلة الصحيحة للألباني (١٢٠٥).
(٢) المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ط٣ (الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ١/١١٥.
(٣) عبد الغني، فخر الحسن الدهلوي قديمي، شرح سنن ابن ماجه للسيوطي (كراتشي: كتب خانة) ١/٢٦٤.

إلينا فقال: من سيدكم وزعيمكم؟ فأشرنا جميعاً إلى المنذر بن عائذ، فقال النبي ﷺ: **أهذا الأشج؟** فكان أول يوم وضع عليه هذا الاسم لضربة كانت بوجهه بحافر حمار..» قال الراوي: «ثم أقبل إلى النبي ﷺ وقد بسط النبي ﷺ رجله واتكأ، فلما دنا منه الأشج أوسع القوم له، وقالوا: ههنا يا أشج، فقال النبي ﷺ واستوى قاعداً، وقبض رجله: **ههنا يا أشج**، فقعد عن يمين رسول الله ﷺ فرحب به وألطفه وسأله عن بلادهم وسمى لهم قرية قرية..»[1].

ومما ورد في الاعتراف بمكانة أهل الزعامات ما قاله النبي ﷺ في سعد ابن عبادة: «.. **اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ، إِنَّهُ لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»[2].

وقال للأنصار في سعد بن معاذ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»[3].

وكل من السعدين سيد قومه، وصاحب مكانة في المدينة المنورة على عهد رسول الله ﷺ، ولم يمنع أن يكون رسول الله ﷺ هو الحاكم الأول من أن يخاطبهما بمكانتهم الاجتماعية بين قومهما الأوس والخزرج.

مما سبق نصل إلى أن المبادرات الإيجابية تجاه الآخر رسائل لغوية، ذات أهداف تربوية، قد تكون أبلغ في النفس وأوقع في القلب من الكلام المجرد، فليست الدعوة لغة تحكى باللسان وحسب ولكنها أيضاً حسن تصرف، ومهارة

---

(١) وساق الحديث، انظر الأدب المفرد، رقم (١١٩٨) وقد ضعفه الألباني.
(٢) أخرجه مسلم انظر محمد التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الشيخ الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، رقم (٣٣٠٨).
(٣) متفق عليه؛ انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، رقم (٤٦٩٥).

في تقدير المواقف، ومنها إنزال الناس منازلهم، وقد تكون إهانة الكريم صــادمة للنفس، وجارحة للكرامة، فتوزن الأشياء بميزان الثقافة السائدة، وظروف النشاط الدعوي، فإذا كان في تشريف الكريم تأليف له كان ذلك محموداً، وإن ترجَّح عكسه كان مذموماً، ويسري ذلك على المسلم والكافر، وسنجد أن النبي، عليه الصلاة والسلام، قد خاطب الملوك بألقابهم واعترف بمراسيمهم الخاصة.

- مخاطبة أهل السلطان بألقابهم:

من قراءتنا للسيرة النبوية سنجد إقراراً باللغة السياسية أو ما يسمى باللغة (الدبلوماسية) بالمصطلح الشائع اليوم، ونعني بها خطاب أصحاب الوجاهــات الاجتماعية، والزعامات السياسية بما من شأنه الاحتفاظ بألقابهم الرسمية، ولعلنا نلمس شيئاً من ذلك في الرسائل التي أرسلت إلى الملوك، إن هذه الكتب علــى أهميتها ولطافتها ودقة صياغتها لم يحفظ البعض منها ســوى عبــارة **«أَسْــلِمْ تَسْلَمْ»** وفهمها بالمقلوب.

لقد استعمل النبي ﷺ الفروق اللغوية لتلائم الفروق الاعتبارية، ووضع كل ملك في المكانة التي يلزم أن يجد نفسه فيها ثم اشتركت جميعها في المضمون.

وهذه بعضها:

رسالته ﷺ إلى هرقل ملك الروم:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِــيمِ الرُّومِ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْــلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري.

«**مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**» فيه اعتراف بمكانته في قومه، «**سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**» لغة عامة مرنة تتضمن التعريض.

«**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ**» ليست ذات غرض نفعي أو سلطوي لبسط النفوذ بل أسند الطلب إلى الإسلام، «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ**» فيه ترغيب وتذكير بالمسؤولية وليس بالضرورة تسلم من الموت بسيوفنا، بل تسلم أيضاً من تبعات الشرك.. تسلم من عذاب الله.. يسلم لك ملكك، «**يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ**» تشجيع، وقد تكون تفسيرية لمعنى (تسلم) «**فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ**». تذكير بالمسؤولية وإشارة إلى الشعوب المستهدفة بنور الحق، التي هي محل عناية الإسلام ورأفته، ثم ختم الرسالة بالآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)، وفي اختيار هذه الآية في ذيل الرسالة عن غيرها من الآيات التي فيها ذكر أهل الكتاب دعوة للتقارب والالتقاء على كلمة سواء، ولا يخفى أن ثمة آيات حكمية في أهل الكتاب لن يكون في اختيارها في هذا المقام حكمة دعوية مثل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...﴾ (البقرة:١٢٠).

ونظير هذه الرسالة رسالة أخرى إلى النجاشي (**الأصحم، عظيم الحبشة**) ومثلها إلى (**كسرى، عظيم فارس**).

ونعثر على كتاب آخر إلى سيد آخر جاء بلهجة ولغة أخرى مختلفة نسبياً عما سبق، يفسرها اختلاف الموقفين، وتفاوت مكانة المرسل إليه، إنه كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر وفيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك»[1].

فهنا لغة مختلفة نسبياً لا يوجد فيها اللقب الرسمي، وتوجد عبارة (يبقى لك ملكك) التي يستشف منها نبرة تهديد أكثر من الكتاب المرسل إلى كسرى وقيصر؛ لأن قابلية الواقع لمثل هذه اللغة متوفرة، فهي واقعية، إذ أنه النقطة الأضعف، فإنما هو أحد عمال قيصر.

وربما كان عدلاً أن لا تكون اللغة مع مثله لينة فتأتي بعكس المراد، فقد يجترأ ويظن أن جانبه مرهوب، فيكون أكثر استعصاء وأبعد عن الاستجابة، وهذا فقط لمن يملك قوة الفعل ويملك أن يهدد.

ولو نظرنا إلى العبارة من زاوية المصلحة، ربما اختلف تحليلنا للرسالة ووجدنا فيها طمأنة للحارث بن أبي شمر، إذ أنها تركز فقط على هدف الإسلام الأول وهو عبادة الله وتوحيده مقابل الاحتفاظ بالملك، فإن تحقق البعد الديني، بقي الشق الدنيوي لصاحبه.

وعلى كل، فإن لغة الترهيب إذا كانت أحياناً مطلوبة فإنها لا كالترغيب في فاعليتها، ولا يلجأ لمبدأ الترهيب إلا في نطاق استثنائي لأن مضمونه الشدة، والشدة مذمومة في أكثر من نص.

---

(١) البداية والنهاية، ٢/٢٦٨.

وإذا كان للملوك والرؤساء مراسيم (بروتوكـولات) لا تتعـارض مـع الشرع فإن الحكمة تقتضـي مخاطبتهم بما يفهمون عند مخاطبتهم، فقد اتخـذ النبي ﷺ خاتماً من فضة عندما أرسل رسله إلى الملوك، حيث قيل له: إن الملوك لا تقبل كتاباً إلا مختوماً.

عن قتادة قال: سمعت أنساً، رضي الله عنه، يقول: لما أراد الـنبي ﷺ أن يكتب إلى الروم، قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختومـاً، فاتخـذ خاتماً من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمد رسول الله»[1].

وقد ثبت في السنة أن النبي ﷺ كان يتخير رسله إلى الملوك، فكان يرسل الأتم خلقاً وخلقاً، والأهيب جسماً، والأحسن بياناً.

فكان دحية الكلبي معروفاً بجماله، وكان جبريل، عليه السلام، يأتي على صورته وقد أرسله رسول الله ﷺ إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى عظيم الروم.

وكان عمرو بن العاص السهمي، رضي الله عنه، معروفاً بذكائه ودهائـه وقد بعثه إلى جيفر وأخيه عياذ الأزديين.

وكان معاذ بن جبل، رضي الله عنه، معروفاً بالجمال والدين العلم وقـد أرسله إلى اليمن.

وكان عبد الله بن حذافة السهمي، رضي الله عنه، جميلاً مهيباً ذا دعابـة وكان قد رسول رسول الله ﷺإلى كسرى عظيم الفرس.

وكان جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، أشبه الناس بالنبي ﷺ خلقـاً وخلقاً وكان هو من تكلم إلى النجاشي عظيم الحبشة.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٢٧٨٠).

وكان مصعب بن عمير معروفاً بشبابه وجمال سمته ورائحته المميزة، وقد اختاره رسول الله ﷺ ليكون سفيره إلى المدينة[1].

هكذا خاطب رسول الله ﷺ الملوك باللغة التي يفهمونها، وهي الاهتمام (بالبروتوكولات) ومنها المظهر المقبول، فللمظاهر جاذبيتها أحياناً لدى هؤلاء، وإذا اجتمع في الشخص سمت المظهر وحسن المخبر حري أن يُسمع له، وحقيق أن يكون له انطباع حسن لدى السامعين، والملوك لا تقبل بأقل من هذا لتعير سمعها لمن يريد مخاطبتها، وإن الاهتمام بهذه الناحية مجرد سد لذريعة الإعراض.

والثابت أيضاً أن الأنبياء كانوا من أجمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً، ولو كانوا غير ذلك ربما أصبحوا مادة للسخرية، وذريعة من ذرائع التكذيب، قال الإمام البغوي: «﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص:٣٤): كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين، وكان أفصح منه لساناً وأجمل وأوسم، وأبيض اللون، وكان موسى آدم أقنى جعداً.»[2].

وجماع القول: إن تخير الشخصية القيادية والمقبولة علماً، ومنطقاً، وهيئة، فيه توخي شروط الأهلية، وتعزيز لقوة الحجية، وقد علم الله من طبيعة الإنسان أنه ميال إلى الجمال، نزّاع إليه..

---

(١) راجع تاريخ ابن الوردي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ١٦٠/١؛ الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي برهان الدين البقاعي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ٦٠٩/٢.

(٢) تفسير البغوي، انظر تفسير سورة طه، آية (١).

ويلاحظ في عالمنا الإسلامي عدم التركيز على الشخصية القيادية الجذابة المؤثرة في أشياء كثيرة، ولربما ارتبط في الأذهان بسبب ذلك أن الدين والتدين هو ملاذ السلبيين والفاشلين، حتى صار الشاب الملتزم مرادفاً للرجل الدرويش المنكمش على نفسه، ولا أراني متجنياً إن قلت: إن الكثير من الشباب المتدين اليوم انسحابيون سلبيون، أداروا للحياة ظهورهم وتركوا أمر مخاطبتها لمن يفهمون لغتها.

ثانياً: إظهار الشفقة والخوف على المدعوين:

في لغة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ما يشير إلى أن أقوامهم كانوا يشغلون حيزاً من وجدانهم، وما يشير إلى أن دعوتهم لهم كان دافعها الخوف والشفقة عليهم، الخوف عليهم من عذاب الله، من شقاءٍ أبدي لا ينقطع، فلا يألونهم نصحاً وإرشاداً بكل ما آتاهم الله من مؤهلات التبليغ، لقد كان باعث الحرص في دعوتهم هو سيد الموقف كما تجد في الآيات الآتية:

- نوح: ﴿.. إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ (هود:٢٦).
- هود: ﴿.. إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (الشعراء:١٣٥).
- شعيب: ﴿..وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ (هود:٨٤).
- محمد: ﴿..فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ (هود:٣).
- رجل من آل فرعون: ﴿..إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ (غافر:٣٢).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ الخوف على الآخر أيضاً سجية العظماء والمصلحين الذين لا تطيب لهم نفس، ولا يرتاح لهم ضمير، حتى يأخذوا بأيدي الآخرين إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم، وقد قيل في التعريف: العظيم هو الذي يتعب ليرتاح الناس، ويسهر لينام الناس، ويجوع ليشبع الناس، وقد يموت ليحيا الناس.

والأنبياء ومن سار على دربهم من الدعاة والمصلحين هم مصابيح الهدى والنور، أرسلهم الله لإنقاذ الناس من وهدة الضلالة، ولقيادة العالم إلى طريق الله المستقيم، لذا هم أكثر الناس حرصاً بالناس وأكثرهم بلاء وتضحية.

ويدلنا النص القرآني على حقيقة أخرى في سياق هذا الشعور بقيمة الآخر وأهميته لدى الداعي، وهي إخلاص النصيحة للناس، وتسخير كل حياته للأخذ بِحَجزهم من الوقوع في النار، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطَّلِعُهَا مِنكُمْ مُطَّلِعٌ، أَلا وَإِنِّي آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ أَنْ تَهَافَتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافُتِ الْفَرَاشِ أَوِ الذُّبَابِ**»[1].

فلا يدع النبي قومه حتى يوقن أنه استنفد ما عنده، وأن الحيلة قد أعيته، وأن مشيئة الله فيهم قد سبقت مشيئته، عندئذ لا حرج في أن يترك أمرهم إلى الله يفعل بهم ما يشاء، وكما جاء على لسان هؤلاء الأنبياء:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

- نــوح: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٦٢)، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود:٣٤).

- هود: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٨).

- صـــالح: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩).

- شـــعيب ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (الأعراف:٩٣).

«والنصح: الشَّفَقَة، وهو أن يكون الناصِحُ - من بُلوغِ النُّصْح - خائفــاً علـــى المَنْصُوح. تقول: أشْفَقْتُ عليه أن ينالَه مكروه.. ونَصَحَ الشيءُ: خَلَصَ. والناصِحُ: الخالص من العسل وغيره.. والنُّصْح: نقيض الغِشّ»[1].

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ عبارات قيلت للكفار فبلغت مسامعهم، فهل يدخل في خطاب الدعاة اليوم هذه اللغة الإنسانية المعبرة، ليعرف الكفار قبل المسلمين أن الدعوة دافعها الأول تحقيق مـــصلحتهم، وأن الدخول في الدين ليس مجرداً عن هذه المعاني، ولا يمثل إرادة الله أن يجر إنسان إلى الدين بطريقة (مطلوب القبض عليك)، وقد تجلت هذه الرحمة النبوية في مجادلة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (باب النون، كتاب الحاء).

نبي الله إبراهيم، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عن قوم لوط، حين أرسل الله الملائكة لإنزال العذاب بهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (الأعراف:٨١)، أي يمارسون الشذوذ، ومع عظيم هذه الجريمة إلا أن ذلك لم يمنع هذا النبي الكريم من الدفاع عنهم، عل أمرهم ينتهي إلى حسن الخاتمة: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (هود:٧٤-٧٦).

قوله: ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أخذ يجادلنا وأقبل يجادلنا. والمعنى: يجادل رسلنا. ومجادلته إياهم أنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (العنكبوت:٣١) فقال: **أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أهلكوها؟** قالوا: لا، قال: **فأربعون؟** قالوا: لا، قال: **فثلاثون؟** قالوا: لا، حتى بلغ العشرة. قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أهلكوها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (العنكبوت:٣٢)»[1].

---

(١) أبو إسحاق النيسابوري، الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ٥/١٨٠.

وبهذا يتضح الفرق بين من يرفع صوته لدعوة الناس إلى دين الله بباعث الخوف عليهم، والنصح لهم وبين من يرفع سوطه لحمل الناس على الدين بدافع الكراهية لهم والنقمة منهم.. بين من يحمل الدين إلى الناس حباً فيهم، ومن يحمل الناس على الدين حملاً خوفاً على الدين منهم، دونما تسديد ولا مقاربة.

ومن استقراء ما سبق، فإن الدين منهج حياة للناس، لا مصدر تهديد لهم، فيجب حمله إلى الناس بالترغيب قبل حمل الناس إليه بالترهيب.

ثالثاً: الدعاء للمخالفين قبل الدعاء عليهم:

عن عبد الله بن عبيد، رضي الله عنه، قال: لما كسرت رباعية رسول الله ﷺ، وشج في جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه قيل: يا رسول الله، ادع الله عليهم، فقال ﷺ: «**إن الله تعالى لم يبعثني طعاناً ولا لعاناً، ولكن بعثني داعية ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، قال: «**اللهمّ اهْدِ دَوْساً وائتِ بهم**»[2].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم (١٣٧٥).
(٢) متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح، رقم (٥٩٩٦).

عن جابر، رضي الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهدِ ثَقِيْفاً**»[1] وثقيف هذه هي التي استقبلت النبي ﷺ في الطائف شر استقبال، عندما خرج يدعو أهل الطائف إلى الله فقد سلطوا عليه غلمانهم يرجمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه وما كان للحقد والثأر أن يجد له مسلكاً إلى قلبه ﷺ بل دعا لهم بالهداية؛ لأن رسالته الرحمة.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه: أُتي النبي ﷺ برجل قد شرب، قال «اضربوه». قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال:«**لاَ تَقُولُوا هَكَذَا، لاَ تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ**»[2]، وفي رواية «**ولكن قُولُوا: اللَّهُمَ ارحمهُ، اللَّهُمَ تُبْ عليه**»[3].

وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل، رقم (١٤٧٤٣) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.
(٢) أخرجه البخاري، رقم (٦٧٧٧).
(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول، ٥٩٥/٣.
(٤) أخرجه البخاري، رقم (٦٣٩٨).

ومن المظاهر الوعظية التي شاعت اليوم ظاهرة التعميم في الدعاء على أعداء الدين، ففي حين صار من الصعب أن تجد من يدعو لهداية الكفار صار من السهل أن تجد من يدعو على الكفار بأدعية شمولية قد تكون غير شرعية لا أصل لها في الشرع.

إن مثل هذه الأدعية بدعية وعبثية، فإن كان هؤلاء الكفار أعداء محاربين فمواجهتهم ورد عدوانهم باتخاذ الأسباب، لا أن ننتظر خوارق العادات بالدعاء ونحن في بيوتنا، إذ ليست العناية الإلهية غطاء للتخاذل والعجز، ولا بأس أن ندعو بعد اتخاذ الأسباب على من عادانا، وإن كانوا غير محاربين فهم مسؤولية المسلمين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠)، فالله يقول: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (أخرجت على الناس)، وأرسل الله نبيه رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ولم يقل: (نقمة على العالمين).

فواجب المسلمين أن يرشدوا الناس إلى خالقهم ويعرضوا عليهم البينة، ويقيموا عليهم الحجة، ولا يأتي العذاب إلا كنتيجة لمقدمة دعوية طويلة ثبت خلالها حجة الله على المعاندين: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام:١٣١)، ويقول: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢)، فأين البينة، وأين تنبيه الغافل عن دين الله؟

إن ما ورد في السنة من دعاء النبي ﷺ على بعض القبائل، لم يكن ذلك خُلقاً وعادة، كما رأينا، وقد أنزل الله في ذلك قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٢٨)، جاء في الشرح: «ليس إليك من إصلاحهم ولا من عذابهم شيء، ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ حتى يتوب عليهم مما هم فيه من الكفر فيسلموا، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم إن بقوا عليها، ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ أي فيستحقون العذاب»(١).

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣ (اليمامة - بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) الشرح، صحيح البخاري، ١٤٩٣/٤.

تطوير فنون الخطاب الحديث

أولاً: الطريقة الإعلامية:

الإعلام وسيلة اتصال جماهيري مباشر، يهدف إلى تزويد الناس بالأخبار الصحيحة، والمعلومات السليمة، والحقائق الثابتة، التي من سماتها إيجاد رأي عام جماعي وموحد، فقد كان هذا ولا يزال أسلوباً ينشده الكثير من الناس، الذين لهم حاجة في التأثير على الجمهور، فهو بهذا المعنى قديم قدم الإنسانية.

وعبر التجمعات الإنسانية تطور الإعلام، وجاء في مراسيم ومنشورات سلطانية يتم تعميمها، وبواسطة الإخباريين، والأشعار التي كانت تلقى في الأسواق والمنتديات فما يلبث أن يتلقفها الركبان، وتطير بين القبائل وتلهج بها ألسنة الناس فترفع أقواماً وتخفض آخرين.

وسنجد فعاليات دعوية في القرآن الكريم توخت المناسبات القومية لعرض الدعوة إلى الله والإعلان عنها، فقد اختار نبي الله إبراهيم، عليه السلام، يوم عيد أهل العراق للفت الأنظار إلى ما يحمله للناس من الدعوة إلى الله، فحطّم الأصنام ثم رمي به إلى النار، وشهد كل ذلك فئات الشعب: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦١)؛ وكانت المناسبة التي عرض فيها نبي الله موسى، عليه السلام، دعوته على قوم فرعون وأثبت برهان صدقه بآية العصا هو أيضاً يوم الزينة، يوم يجتمع فيه الناس: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ

﴿ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ (طه:٥٩)؛ ومثل ذلك قصة الغلام المؤمن وأصحاب الأخدود ونحوها.

وتتجلى أساليب الدعوة المختلفة في الأنموذج الدعوي لنبي الله نوح، عليه السلام، من إعلان جماعي، وإسرار فردي وشغل مساحات الزمان من ليل ونهار.

و في سيرة النبي ﷺ نجد أن مرحلة الجهر بالدعوة بدأت بطريقة الرسالة الإعلامية المباشرة، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما أنزل الله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ (الصفا) فصعد عليه ثم نادى: «**يا صباحاه**». فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: « **يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ صَدَّقْتُمُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فَقَالَ أَبو لَهَب: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَمَا دَعَوْتَنَا إِلاَّ لِهَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ (المسد:١)[١].

ولا ريب أن في هذا النداء محملاً لمراد النبي ﷺ من جمع القوم، ذلك أن إنذار الناس من عذاب الله نظير إطلاقها للاستغاثة من حرب.

و لم يكن هذا الخبر المفاجئ ليلقى دون وجود قاعدة تبني عليها الرسالات، وهي الصدق والأمانة، وقد ورد في حديث أخرجه الشيخان قالوا: «نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد، رقم (٢٨٠١).
(٢) مشكاة المصابيح، حديث رقم (٥٨٤٦).

وكانت النتيجة المتوقعة أن حادثة الجهر بالدعوة بهذه الطريقة سينتشر خبرها سريعاً بين العرب، وأن اهتمام الناس المتوقع سيعززه صدقية المصدر كونه جاء من إنسان صادق وأمين، عظيم في قومه، ومن أوسطهم حسباً ونسباً، ولو أن أحداً غيره قالها لربما ترك عاصفة من الضحك والتندر، ولتساقطت عباراته في التراب ميتة غير ذات فاعلية، ولما واجهوه بكل إمكاناتهم، لذلك كان لهذا البلاغ قوة الفاعلية في النفوس، فطار من مكة إلى غيرها؛ لأن مكة وهي أم القرى تدين لها العرب بالمرجعية الفكرية، والزعامة القبلية، وإليها يحج الناس من كل الأقطار فكان ذلك كافياً لإيصال خبر ظهور الدعوة إلى القبائل العربية.

وبعد هذا التمهيد الإعلامي كان النبي ﷺ يغشى الأسواق والمنتديات العامة ليعرض الإسلام على الناس، مثل سوق عكاظ، ومنى، وأماكن الحجيج، وغشي الأماكن التي تجتمع فيها قريش، وسافر إلى الطائف ليعرض الدين على رؤسائها، وفي المدينة كان يذهب إلى أماكن تجمع العرب واليهود ليعرض عليهم الإسلام.

بهذا تتسع الرقعة الإعلامية الدينية لتتحقق فكرة إقامة الحجة على الناس.

على أن النبي، صلوات ربي وسلامه عليه، جدد من أساليبه، و لم يقف عند طريقة أو طريقتين، فقد روى الإمام أحمد في (مسنده) عن علي، رضي الله عنه: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فِيهِمْ رَهْطٌ كُلُّهُمْ يَأْكُلُ الْجَذَعَةَ وَيَشْرَبُ الْفَرَقَ، قَالَ: فَصَنَعَ لَهُمْ مُدًّا مِنْ طَعَامٍ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَ وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ، ثُمَّ دَعَا بِغُمَرٍ

فَشَرِبُوا حَتَّى رَوَوْا، وَبَقِـــيَ الشَّرَابُ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَـــسَّ، أَوْ لَمْ يُشْرَبْ، فَقَالَ: «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي بُعِثْتُ لَكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ بِعَامَّةٍ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ مَا رَأَيْتُمْ، فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي**»، قَالَ: فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ وَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، قَالَ: فَقَالَ: «**اجْلِسْ**، قَالَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ أَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ لِي: **اجْلِسْ**، حَتَّى كَانَ فِي الثَّالِثَةِ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِي»[1].

وفي هذه الحادثة نلحظ استعمال إحدى أهم الوسائل تـــأثيراً وجاذبيـــة، وهي الدعوة إلى وليمة، فعنـــدما يكرم المرء فإن ما هو متوقع منه هـــو أحـــد أمرين، إما مبادلة الكرم بمثله كالاستجابة لما يدعو إليه، أو على الأقل مبادلـــة الكرم بكرم أقل منه وهو السكوت عن مقابلة الكرم بإساءة، فإن لم يكـــن في المدعو خير فلا يكون منه شر، وهو ما حدث مع عشيرة المصطفى، صـــلوات الله عليه وسلامه، فقد عرض دعوته وطلب مبايعته، والتزموا الصمت، وفـــاز بالشرف الإمام علي، رضي الله عنه، وقد ورد أن النبي ﷺ كرر إقامة الـــولائم لذات الهدف.

وقد كان يقابل الإعلام الدعوي على لسان الأنبياء بـــالإعلام المـــضاد، والدعايات المضللة.. وإطلاق التهم والأوصاف المنفرة، كالتي ذكرها القـــرآن الكريم مثل: (سَاحِر) (شاعر) كما سبق.

---

(١) انظر: محمد ناصر الدين الألباني، رحمه الله ، صحيح السيرة النبوية، ط١ (عمـــان: المكتبة الإسلامية) ص ١٣٥.

وسنلحظ أن صف مشركي قريش لم يقف أيضاً عند أسلوب واحد في الهجمة المضادة، حيث استعملوا أساليب التشويش على الجهود الدعوية، التي استعملها الكفار، بتتبع تحركات النبي ﷺ بين القبائل، فهذا أبو لهب يسير خلف النبي ﷺ يحذر من اتباعه كل من لقيه من القبائل العربية، مردداً التهم التي اتفقت قريش على نشرها بين الناس.

ومن أساليب التشويش التي استعملتها قريش لصرف اهتمام الناس عن الدعوة، أسلوب التشويش المباشر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦). جاء في أضواء البيان: «فترى بعضهم ينهى بعضا عن سماعه، ويأمرهم باللغو فيه، كالصياح والتصفيق المانع من السماع لكراهتهم للحق، ومحاولتهم أن يغلبوا الحق بالباطل» (١).

ومن ذلك أيضاً محاولة محاكاة الأسلوب الدعوي، بأساليب تشويقية مماثلة، كما فعل النضر بن الحارث في محاكاته لقصص القرآن الكريم بقصص أخرى، ذكر ابن هشام في السيرة قال: «النضر بن الحارث بن علقمة، كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن وحذر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم السنديد، وعن أسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها، فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٧٣/٢٦.

﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الفرقان:٥-٦)، ونزل فيه ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (القلم:١٥).

قال ابن إسحاق: وجلس رسول الله ﷺ يوماً - فيما بلغني - مع الوليد ابن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر ابن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨-٩٩)»[1].

وعلى كل حال نحن أمام طرائق أسلوبية دعوية، هي الدعاية والإعلام، ومن أساليبها المستخلصة طريقة الإثارة، كالنداء في قريش **(وا صباحاه)** ومنها التشويق كالولائم، ومنها العقدة والحل كقصة الغلام التي تضمنت عقدة استعصائه عن الموت ولفت الأنظار إلى هذه النادرة، ومن ثمَّ مجيء الحل عند اجتماع الناس لمشاهدة موته بواسطة تعريف الناس بربهم، كما تحكي القصة.

كان ذلك هو الممكن المتاح فيما مضى في أساليب الدعاية والإعلام، واليوم أصبح الإعلام ثروة وثورة هائلة، وتوسع دوره توسعاً هائلاً، وأدرك

---

(١) سيرة ابن هشام، ٣٨٣/١-٣٨٤.

الساسة، وصناع القرار، وأصحاب الأفكار والنظريات، أهمية هذه الوسيلة، وسموها السلطة الرابعة، ومنهم من يعدِّل هذا التصنيف ويجعله السلطة الأولى، وبالدعايات التضليلية، والإعلام الموجه يمكن إعادة صياغة أذهان الناس، والتحكم كثيراً في اتجاهاتهم، والتأثير على آرائهم ومواقفهم، وهو ما تفعله الدول المهيمنة اليوم وتركز عليه.

أما الفضائيات فقد صارت جزءاً من حياة الناس، تغزو البيوت.. وتقتحم على الناس خلواتهم، وتحتل نقاط الفراغ من مساحات أفكارهم .. وكل أمة تريد أن تغزو الآخرين بثقافتها الخاصة، وما أكثر ما يستأثر الإعلام اليوم بأوقات الناس طوال الليل والنهار، ومعظمه مكر ودعوة للمسخ والانحراف، كما يقول الله تعالى: ﴿.. بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا..﴾ (سبأ:٣٣)، ولا يواجه هذا المكر المتصل بغير منهج النبوة في الدعوة كما رأينا، وما لم تكن أمتنا محصنة بخطوط دفاع دعوية ومشاريع هوية، تعرضت للاندثار.

ولكن لا يغني مجرد الظهور، فالإعلام اليوم له أساليبه وطرائقه وقد جدنا بعضها في منهج الأنبياء، وظروف العصر وتعقيداته تقتضي البحث عن المزيد.

ثانياً: الطريقة الحوارية:

١- تعريف الحوار:

المُحَاوَرَةُ: «المُحَاوبَةَ ومُرَاجَعَةُ النُطْق والكَلاَم في المُخَاطَبَة، وقد حَاوَرَه وتَحَاوَرُوا: تَرَاجعُوا الكَلاَمَ بَيْنَهُم، وهم يَتَراوَحُونَ ويَتَحَاوَرُونَ»[١].

أما الجدل فيعرفه علي الجرجاني بقوله: «الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان، ودفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة»[٢].

٢- الحوار كقيمة دعوية:

شاء الله أن تقوم الحياة على الثنائيات الضدية، فلولا الشر ما عُرف الخير، ولولا الجهل ما عرف العلم، ولولا الباطل ما عرف الحق، وهكذا .. ولا معنى لشيء بدون وجود الآخر، وخلق الله الناس بصمات مختلفة ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، ووجود الاختلاف يعني وجود الحاجة للحوار، فالحوار

---

(١) محمّد المرتضى الزّبيدي، تاج العروس، تحقيق: مجموعة من المحققين(دار الهداية) ص ٢٧٣٤.

(٢) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ) ص ١٠١.

ضرورة إنسانية لا تقوم معايش الناس إلا به، وقيمة دعوية يسجل غيابه تراجع العمل الإسلامي وانكفاء أصحابه، وعن طريق الحوار يمكن الوصول إلى الحقائق كما هي على الواقع لا كما يحب كل طرف أن تكون.

وتظهر رداءة منتوج العمل الدعوي من خلال طغيان طريقتين كلاهما مغلقة، الأولى الإلقاء المباشر التي تكون من طرف واحد، والثاني التنظيرات الكتابية الموغلة أحياناً في العموميات التي نجد فيها المؤلف يكلم نفسه، وبينهما غاب الانفتاح الذي يأتي من فتح خط التواصل بين عقْلَين وفِكْرين وهو الحوار. والآن ومع تعدد الوسائط وتوسع نطاقها عبر الفضائيات وشبكة العنكبوت (الإنترنت) والمواقع الحوارية أصبح تصادم الأفكار وتقاطعها مسألة حتمية لا مناص منها، وهذا ما يشجع عليه الإسلام، لأن الحوار في الإسلام سنة من سنن الخلق، وحقيقة ثابتة تؤكدها المساحة الواسعة التي يحتلها الحوار في القرآن الكريم، وهل كانت دعوة الأنبياء إلا على أساس وجود طرفين وفكرين مختلفين، ولم يُعَب على الكفار الحوار العقلاني المنصف، بل عِيْب عليهم اللّجج القائم على مجرد المكابرة وإلغاء العقل وتقليد طرائق من سبقهم.

والقرآن يحدثنا عن جولات حوارية عجيبة بين الخالق والمخلوق، بين الله والملائكة، وبين الله والأنبياء، وبين الله والشيطان، وإن الكافر ليأتي يوم القيامة ليجادل عن نفسه بالحلف الكاذب أمام محكمة القضاء العادل، فيُسمع لرأيه ولا يُقمع؛ وفي القرآن أيضاً نجد حوار أهل النار مع أهل النار، وأهل الجنة مع أهل الجنة، وأهل النار مع أهل الجنة، وحوار بين الأنبياء وخصومهم، ويكفي أن نجد في كتاب الله كلمة (قال) وردت أكثر من (٧٠٠ مرة)، وكلمة (قالوا) أكثر من (٣٠٠ مرة)، وهناك العشرات من مشتقاهما الأخرى.

حاور الله عز وجل الشيطان، مع أن الله هو صاحب العلم المطلق والحكمة المطلقة، فيما يمثل الشيطان عنوان الشر، و لم يُحل ذلك دون محاورته، وتحاور المولى عز وجل مع عبيده من الملائكة والإنس، وهو الذي حكمه العدل، وقوله الفصل، وما العبيد كلهم إلا تحت سلطانه وملك يمينه، علمهم قبس من علمه، وتدبيرهم فيض من تدبيره، لا يعرفون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون صرفاً ولا تحويلاً.. ومع ذلك يحاور عبيده.. فيا لعظمة الخالق العدل، ما أكرمه، وأحلمه، وأرفقه بعباده.

وكتب التراث تدلنا على أن الحوار مع (الآخر) لم ينقطع قط، ففيه الكثير من المناظرات الفكرية، التي كانت تدور في الحواضر الإسلامية، بين العلماء من ناحية والزنادقة وأهل الملل والنحل من ناحية ثانية.

إن اللجوء إلى أسلوب الحوار، إضافة إلى ما سبق، يعني وجود قاعدة حرة للتواصل ينتفي بوجودها وجود الحجْر ومصادرة ما يؤمن به (الآخر)، وجر الناس على نواصيهم بالإكراه، وإنما اعتمد الإسلام القلوب لا القوالب في الاتباع، واشترط الاختيار الحر لنيل الجزاء من الله، وجعل العقل مناط التكليف؛ وإن ما يسترعي الانتباه حقاً أن الأنبياء وهم يحملون إلى الناس الحقيقة الكاملة لم يكونوا يتصرفون بمنطق من بيده الحق ابتداءً كما قد سبق معنا، ولا بمنطق من بيده التفويض النهائي لسوق الناس إلى الله بغير رضاهم، بل بكونهم أصحاب رسالة إلهية اختصهم الله بها من دون الناس، لتعريف الناس بخالقهم بالدليل والحجة الواضحة، وتلك هي القصة في جوهرها.. تعريف الناس بربهم.

ولقد قدم الإسلام قواعد في إدارة الخصومة الفكرية مع (الآخر)، وبطريقة سماوية قوامها العدل، وأساسها الصدق، وهدفها الوصول إلى مكمن الحقيقة المنشودة.

٣- الشروط اللازمة فيمن يحاور باسم الدين:

المتوقع من إجراء الحوار أو الجدال أن يفضي إلى نتائج حاسمة، فيها طرف منتصر وآخر منهزم، من هنا تكمن خطورته وأهميته، والقرآن الكريم إذ يدعو إلى الحوار كقيمة دعوية، إنما يفعل ذلك لأن هذا الدين هو الحق ودونه الباطل، فآياته ظاهرة، وحججه قاهرة. غير أن ذلك لا يعني أن كل من انبرى للتحدي باسم الإسلام أنه لا محالة سيكسب الرهان، فقد يكون الداعية نفسه غير مؤهل لخوض هذا المعترك، ولا يؤمن أن يمثل بالدين بدل تمثيله، ويكون كمحامي فاشل يدافع عن قضية عادلة لذلك، قيل:

«من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من كان على الباطل.

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يعرف الحق.

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يجيد الدفاع عن الحق.

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يدرك مسالك الباطل.

إذن، فليس كل أحد مؤهلاً للدخول في حوار صحي صحيح يؤتي ثماراً يانعة ونتائج طيبة.

والذي يجمع لك كل ذلك: (العلم)؛ فلا بد من التأهيل العلمي للمُحاور، ويقصد بذلك التأهيل العلمي المختص»[1].

---

(١) الشيخ صالح بن حميد، أصول الحوار وآدابه في الإسلام، المقال متاح في شبكة الإنترنت في الموقع www.saaid.net/mktarat/m/13.htm بتاريخ ٢٠١١/١/٣١م.

وهكذا تظهر الدعوة إلى الحوار خطوة دعوية متقدمة، لا ينهض بها إلا المتمكن للموضوع بمجال الحوار، الملم بحجج الطرفين ونقاط الضعف والقوة، بحيث يضع لكل سؤال جواب، ولكل شبهة ردها المقنع، وإلا كانت النتيجة فتنة على الناس؛ لأن ضعف الداعية سيعني فساد الفكر الذي يدعو إليه وصحة فكر الطرف الآخر.

٤- أهم قواعد الحوار مع (الآخر):

وتكمن في التالي:

- الحوار بالحكمة واللين، وقد سبق تفصيله.
- عدم الدخول في الحوار بحكم مسبق.
- تقديم الحجج والبراهين.
- أن يكون هدف الحوار الوصول إلى الحق.
- عدم السخرية بالآخر وبحجته.
- البدء من المتفق عليه قبل المختلف فيه.
- كل طرف حر في رفض أو قبول النتيجة.

وتفصيلها كالتالي:

أ- عدم الدخول في الحوار بحكم مسبق:

لا يُسمى الحوار حواراً إذا كانت الأحكام جاهزة، بل هي جلسة نطق بالأحكام، بل الحوار الحقيقي هو الذي يبنى على قاعدة «إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدَّعياً فالدليل»، من هنا لا ينبغي أن يجلس الداعية لمجرد

تقديم المواعظ والنصائح لمن يحاوره، على أساس أنه يمثل الحق، والطرف (الآخر) يمثل الباطل، فهو وإن كان الحال كذلك إلا أن المطلوب تقمص الرجل الباحث عن الحقيقة، وافتراض الخطأ على نفسه ولسان حاله يقول: إنني إذ أدعوكم للحوار لن أجلس إليكم ابتداء بحكم مسبق، بل بقاعدة أن أحدنا لا يخلو أن يكون على حق والآخر على باطل، وتحت قاعدة رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب، وهذه القاعدة أثبتها الخالق سبحانه كأحد ضوابط الحوار، قال تعالى: ﴿..وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤)، وفائدته تشجيع الطرف الآخر على تعاطي الحوار عن طريق طمعه في كسب المحاور إلى صفه، ومنها إعطاء (الآخر) الفرصة ليقول كامل حجته دونما تحفظ أو خوف، ليسهل بذلك الإلمام بكامل أطرافها وتفنيدها.

وقد وجدنا بعض المناظرين الذين جندوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام من أباطيل أهل البدع والضلالات، لا يكاد أحدهم يترك للطرف الآخر طلقة نفس ليقول فكرته كاملة، ويقعده أمامه لا ليسمع منه بطريقة المناظرة المتكافئة، بل ليضعه في قفص الاتهام ويقيم عليه دعاواه، ولو تركه لساعده على إفراغ ما في جوفه ليكون أدعى للوقوف على كامل الصورة، وأي قمع فكري عن طريق الاستئثار بالوقت وحصر الطرف الآخر في زاوية الاتهام، سيكون بمثابة ضعف وهروب من مواجهة حجج الطرف الآخر، رغم أن الطرف الآخر قد لا يكون على شيء، فأحسن طريقة أن يترك كل طرف يتكلم حتى يتوقف، ثم يأخذ المدة الزمنية الذي أخذها لعرض حجته.

ب- تقديم الحجج والبراهين:

من البدهي في الحوار البنَّاء أن تجد مع كل طرف معطياته من الحجج والبراهين، فالحوار معادلة قائمة على مقدمات ونتائج، والأدلة هي المقدمات التي يفترض أن تقود إلى النتائج: ﴿..قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل:٦٤)، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ (الأنبياء من ٢٤)، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١٤٨)، ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف:٤)، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:٩٣).

وتنقسم الأدلة إلى عقلية ونقلية، فالأدلة العقلية هي المشترك العام المتفق على حجيتها، أما الأدلة النقلية فالطرف الآخر على تفاوت بين ما يقبل منها وما يرد، فإذا كان ملحداً لا يؤمن بالقرآن أو مبتدعاً لا يؤمن بالسنة، فإن النص الشرعي للقرآن أو للسنة أو لكليهما لا معنى له؛ لأنه ليس له عند الطرف الآخر صفة الإلزام، ولذلك فإن أولويات أدلة الاحتجاج تتفاوت بين مُناظر وآخر، فإذا كان الطرف الآخر لا يؤمن بالأدلة الشرعية فلا مكان للنصوص الدينية في المناظرة إلا ما وافق منها الأدلة العقلية، وإذا كان الطرف المحاور مسلماً وللنص حجيته، فإن البدء يكون بالنص، فالمفترض أن يكون وقافاً عند كلام الله ورسوله.

ج- أن يكون هدف الحوار الوصول إلى الحق:

من أهم عناصر نجاح أي حوار هو أن تسوده اللغة العليمة الهادئة، واحترام كل طرف للآخر، وليس مجرد إفحام الخصم، وتسجيل نصر ضده هو الهدف من الحوار، بل الوصول إلى الحق المنشود هو الهدف والغاية، لذا فإن الحوار إذا أدى إلى مراء ولجج عقيم يكون قد خرج عن الهدف المنشود، الذي هو استمالة القلوب وتأليفها وليس استعداءها ووضعها في قفص الإدانة؛ إن كسب نقطة انتصار على المحاور لا يعني كسب قلبه بالضرورة، بل قد يكون خسارته، ما لم يؤخذ باللين المشفوع بالمحبة والإخلاص.

وقد كان العلماء يرجون أن تظهر الحجة على لسان الخصم ومما حفظ عن الإمام الشافعي قوله: «ما كلمت أحداً قطّ إلا أحببت أن يُوفّق ويُسدّد ويُعان، وتكون عليه رعاية الله وحفظه.

وما ناظرني فباليت ! أظَهَرَتِ الحجّةُ على لسانه أو لساني».

ويقول الغزاليّ، أبو حامد: «التعاون على طلب الحق من الدّين، ولكن له شروط وعلامات؛ منها أن يكون في طلب الحق كناشد ضالّة، لا يفرق بين أن تظهر الضالّة على يده أو على يد معاونه. ويرى رفيقه معيناً لا خصماً. ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهره له..»[1].

ويقول ابن رجب الحنبلي: استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأي شيء

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة) ١/٤٢.

تغلب خصمك؟ فقال: بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه، فقال أحمد: (ما أعقله من رجل).

فرد المقالات الضعيفة، وتبيين الحق في خلافها، بالأدلة الشرعية، ليس هو مما يكرهه أولئك العلماء، بل مما يحبونه ويمدحون فاعله ويثنون عليه»[1].

وقد قصر فهم البعض عندما ظنوا أن قوة الحجة تكمن في قوة الصوت، فاستبدلوا نداء العقل بصراخ العواطف، نعم ربما اضطر المحاور إلى رفع صوته ولكن يشترط أن يكون ذلك مواكباً لقوة حجته، وكم يكون حجم الخلل واضحاً عندما يرتفع الصوت في مقابل ضعف الحجة، فإما أن يخفض المحاور صوته إلى مستوى حجته، أو يرفع بحجته إلى مستوى صوته.

وإذا عدنا إلى نوع اللغة التي يجب أن تكون بالحسنى فإنه يتعين علينا التذكير بالاستثناء المذكور في الآية: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ...﴾ (العنكبوت:٤٦)، فمراعاة الذوقيات بالخطاب المؤدب يكون مع الطرف المؤدب، الباحث عن الحقيقة، الذي لا يحمل ضغينة أو موقفاً مسبقاً من الدين، أما الذي يطلب الحوار بهدف النيل من الإسلام ومقدساته بالشتائم والاستهزاء، وفتنة الناس بتلفيق الأباطيل، وقلب أوجه الحقائق، فهذا من الذين ظلموا، ولغة الملاينة مع طرف كهذا بمثابة خذلان للدين، وترك ظهره مكشوفاً لسهام الأعداء، والله يقول:

---

(١) انظر: الفرق بين النصيحة والتعيير، موقع الإسلام، http://ebooks.roro44.com/Download-2332 الموقع متاح بتاريخ ٢٠١١/١/٣١م.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى:٣٩)، ويكون الانتصار بالرد بنفس الأسلوب، من غير اللجوء إلى الكذب، وكشف أهدافه الخبيثة، وإن كان في هذا خروج عن الاعتدال إلا أنه مطلوب لتحجيم أصحاب الباطل، والله يقول: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٨).

وما أكثر أصحاب التضليل الفكري اليوم من أبناء جلدتنا، الذين صاروا يتباهون على بعض القنوات الحوارية بأنهم يتعرون من هويتهم جهاراً، ويتاجرون بكرامتهم في أسواق النخاسة بثمن بخس دراهم معدودة، فيمجدون أعداء الإسلام، بل أعداء الحياة والإنسانية الذين يتلذذون بقتل أطفالنا، الذين يحملون قلوباً سوداء ملتاثة بهوس الحقد، ما أكثر ما تجد اليوم من يمجدهم ويبارك أفعالهم، ممن يسمون بالمفكرين وأصحاب المراكز البحثية، وليس في الحقيقة كذلك.

د- البدء من المتفق عليه قبل المختلف فيه:

إن مما يعمق العداوة والشقاق بين متنافرَين، هو النظر إلى الآخر من زاوية الافتراق، وتحاشي النظر إليه من زاوية الاتفاق، فلا يبقى فيه إلا الخصم الألد.

ولا ريب أن ثمة مشتركاً إنسانياً بين إنسان وآخر، ومشتركاً أخوياً بين مسلم ومسلم، وعند الحوار يكون من الجميل المرور على المشترك أولاً، ولفت النظر إلى المتفق عليه قبل المختلف فيه؛ لأن ذلك خليق أن يقرب الطرفين من بعضهما، وأن يحرص كل واحد على ردم ما بقي من هوة إن توفر فيهما عامل الإخلاص.

أما إذا حرص كل طرف على إعطاء إشارة أن لا اتفاق ولا التقاء في نقطة، فإن النيات عندئذ تكون مبيتة لعدم الوصول إلى كلمة سواء.

ومن حَمَل همَّ الدعوة إلى الله ليست مصلحته في عدم تقريب المسافة بينه وبين (الآخر)، وليس من المصلحة الدعوية المواجهة الضدية مع المجتمع المحيط، فثمة متسع للتذكير بالأخوة الإسلامية أو الإنسانية، والإغراء بما هو قائم في الناس من نظم القيم الثابتة التي لا يختلف معهم فيها، ثم ينتقل إلى غيرها عندما تواتيه الفرصة، فهذا جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، يخاطب النجاشي في ما هو محل اتفاق بين عامة الناس، مثل صلة رحم وترك الفواحش، ولم يكن يشأ أن يكلمه في المفترق فيه من أمر عيسى، عليه السلام، والقول بنبوته في الإسلام أو ببنوته في الفكر المسيحي، قال:

«أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله، من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه، على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى

عبادة الأوثان، من عبادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.. »[1].

بدأ جعفر، رضي الله عنه، بقواعد إنسانية عامة لا ينكرها أحد من الناس، ثم تأمل كيف أتى على ذكر توحيد الخالق وعدم الشرك بالله بعد ذلك، فذكر مزايا الدين المعروفة عند الأمم والشعوب، لا بد أنها مما تحظى بالاحترام، وبما أنه دخل من المتفق عليه أولاً فإن ورود المختلف فيه ضمناً جدير أن يغتفر، إما لأنه اكتسب قيمته من سابقه، أو لأن ورود المتفق عليه قبل المفترق فيه ضيَّق من الهوة، ثم ختم جعفر، رضي الله عنه، كلامه بالثناء الضمني على النجاشي، من أنهم اختاروا جواره على من سواه، حتى أن عمرو بن العاص مبعوث قريش قبل إسلامه فطن إلى هذه اللغة المشتركة، واللغة التصالحية، فلفت نظر الملك إلى المفترق فيه معهم بالقول الصريح، أنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، ويريد وصف القرآن بأن عيسى، عليه السلام، (عبد الله ورسوله)، كما هو معروف في القصة، ولم يتطرق إليها جعفر بالقول الصريح، لأن الوقت لم يكن ملائماً لفتح جدل فكري كبير كمسألة عقيدة النصارى في عيسى، ولكن بعد أن طلب منه ذلك صدع بالحق، ولم يزد على رأي الإسلام في عيسى ولم ينقص.

---

(١) انظر الإمام الغزالي، فقه السيرة، تحقيق العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ط٧ (دمشق: دار القلم، ١٩٩٨م) ص١١٥.

والقرآن الكريم يخاطب أهل الكتاب في المشترك الأول، وهو عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به قبل تقديم التفاصيل، وعبادة الله لا ينكرها أحد منهم، ثم ضيق الخلاف في نقطة واحدة وهي الشرك بالله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ومن أدلة ذلك قوله: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة: ٤١).

فجاء طلب الإيمان بالقرآن من وصفه مصدقاً لما معهم وهما التوراة والإنجيل، أي أن ميزة هذا الكتاب هو أنه معترف بالكتابين ويلتقي معهما في وحدة المصدر، وأنه لم يأت ليلغيهما بل مصدقاً لهما، مصدقاً بالآيات غير المحرفة أو التي هي باقية عندهم ولكنهم أخفوها.

فما بقي من مبررات الرفض، والعجيب أن عبارة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ تكررت في القرآن الكريم في غير موضع، كنقطة اتفاق مُرضية لأهل الكتاب، لأنها ضمان لهم بأن هذا الدين يعترف بما يعتدُّون به من شرف الاختصاص بالرسالات، وما لهم مع السماء من سابق عهد، فلعل تفسير مراد الله هو أن هذا الدين يقر لكم بهذه المكانة الدينية التي كانت لكم، ولن تكون محل خلاف، وأن نظرة الإسلام إليهم ليس كالكفار الأميين، وأن القرآن يحفظ للكتابيين صلة القربى بما تضمنه من مؤكدات التصديق لو أنهم آمنوا بالله.

ولنتأمل في الآية التالية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ..﴾ (المائدة:٦٨) قد يتبادر إلى الذهن أن الآية تدعو أهل الكتاب إلى تفعيل شريعة العهدين كشريعة باقية غير منسوخة، بل المراد إذا أقمتم التوراة والإنجيل ففيها لزوم التصديق بالنبي ﷺ والعمل بشريعته، وإنما لم يأمر أهل الكتاب رأساً بذلك؛ لما ذكرنا وهو الانطلاق مما عندهم، الذي يؤمنون به ويؤمن به المسلمون، أي الذي لا خلاف عليه فهذا أدعى للإذعان وتقريب المسافة، قال ابن كثير، رحمه الله، في تفسير الآية: «أي من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل، أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها، ومما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشريعته، ولهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾: يعني القرآن العظيم»[1].

على أن هذا الأسلوب في ملاينة أهل الكتاب، لا يعني أنه مفض دائماً إلى الهدف، بقدر ما هو قاعدة أخلاقية دعوية ثابتة لا يقوم على حساب النتائج ونوعها، ولئن كانت مواقف أهل الكتاب هي العداء التاريخي للمسلمين، والتربص بهم، والحقد عليهم، فإن ذلك لا يلغي المنهجية الثابتة، خصوصاً في مجال لغة الخطاب الدعوي، ويبقى لفكرة التدافع ميادينها، فلغة الدعوة غير لغة الجهاد (جهاد اللسان وجهاد السنان).

---

(١) تفسير ابن كثير (سورة المائدة، آية ٦٨).

هـ- عدم السخرية بالآخر وبحجته:

يقول الله تعالى في شأن محاورة أبينا إبراهيم للملك النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨).

إن حجة النمرود في مسألة الإحياء والإماتة متداعية، إذ الدليل على حدوث هذه الأشياء أن تُرى مشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، وأما دليله فسلوك إجرائي لما هو قائم حيث أتى باثنين أمر بقتل أحدهما، وترك الآخر، ولا علاقة لهذا بالإحياء والإماتة ومعناهما، إلا أن هذا النوع الساذج من الاستدلال لم يجعله أبونا إبراهيم، عليه السلام، مادة للتفكه والسخرية، ولم ينشغل به بل تركه له وسلم له تسليم جدل، فشواهد عظمة الخالق من الاتساع بحيث لا تستحق مراجعة ملك بابل فيها، فانصرف إلى مشيئة أخرى ليثبت عجزه وقدرة الخالق.

وهذا عكس الإنسان المكابر، فبضاعة الاستهزاء والسخرية بالمحاور هي كل رصيده، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الحجر:١٠-١١)، ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأنعام:١٠).

و- كل طرف حر في رفض أو قبول النتيجة:

لا يوجد بيد الداعية سلطة دينية على إجبار أحد على ما يدعو إليه، مهما بدت حججه قوية، والهدف من إقامة الحوار يتحقق بإقامة الحجة، والتذكير بسوء العاقبة لمن لا يذعن لسلطان العقل والنقل، وإن أفضى إلى التسليم للحق فهو الغاية، وإن أفضى إلى العنت والاستكبار فأمره موكول إلى الله، يحاسبه على محض اختياره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ (هود:٢٨)، ﴿...وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ...﴾ (ق:٤٥)، ﴿...أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ..﴾ (الشورى:٤٨)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لم يكن عندنا نزاع في أن الأقوال لا يثبت حكمها في حق المكره بغير حق، فلا يصح كفر المكره بغير حق، ولا إيمان المكره بغير حق، كالذمي الموفي بذمته، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ..﴾ (البقرة:٢٥٦)»[١].

وقال في تفسير الآية: «ثبت أن هؤلاء كان آباؤهم موجودين هودوا، ومعلوم أن هذا دخول بأنفسهم في اليهودية قبل الإسلام وبعد مبعث المسيح، عليه السلام، وهذا بعد النسخ والتبديل، ومع هذا نهى الله عز وجل عن إكراه

---

(١) الإمام أحمد بن تيمية، الاستقامة، تحقيق: محمد رشاد سالم (المدينة المنورة: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٣هـ) ٢/٣٢٠.

هؤلاء الذين هودوا بعد النسخ والتبديل على الإسلام، وأقــرهم بالجزيــة»[1]، ذلك أن الحرية شرط الثواب والعقاب، فلو أجبر الله العباد على الطاعة لبطــل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولكنه أمرهم تخييراً ونهــاهم تحذيراً، وجعل للإنسان اختيار مساقه بيده، إما إلى الجنة أو إلى النار، وليــست العبرة في النهاية بقوة الحجة، بل تكمن أولاً في الاســتعداد لــسماع الحجــة وتقبلها، فقد تكون الأدلة ظاهرة، ولكن المحاور يحمل استعداد مــسبقاً لغــير التسليم مهما ظهرت شواهد الحق على لسان الداعية إلى الله، كما قال تعــالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ (البقرة:٦-٧).

والإنسان المعاند صاحب القلب المريض المحكوم بهواه لا يقبل لكل مشكلة حلاً بل يضع في كل حل مشكلة، ويحول الدليل إلى دليل على شبهة جديــدة ليتفلّت من شباك التسليم، كما جاء في سورة الحجــر: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ (الحجر:١٤-١٥)، وقال عز من قائل: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ

(١) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) ١٦٩/١.

عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣).

وقد يقول القائل، ولماذا لم ينـــزل الله عليهم كتاباً ليقرؤوه إذا كان هذا هو شرطهم الأخير، وقد جاء الرد في قوله تعـــالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأنعام:٧)، فلا هذا الشرط ولا غيره يمكن أن يضع نهاية للجدل العقيم، وقـــد حـــسموها بالرفض القاطع للتسليم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٣٢)، بل قد لا تزيدهم كثرة الآيات والأدلـــة إلا عناداً واســـتكباراً ونفـــوراً: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح:٧)، إذن ما الحل إذا كانت حتى المعجزات الخارقة لنواميس الطبيعة الدالـــة علـــى صاحب القدرة المتصرفة في شؤون الكون غير مجدية؟ ومـــا الحـــل إذا كـــان التحريض على تفعيل العقل وإلغاء المورثات البالية والانحياز للمنطـــق ونـــداء الفطرة السليمة لم يُجد فتيلاً؟ الحقيقة لا حل إلا ما قال الله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا..﴾ (الكهف:٢٩).

لقد تولى الله القضية وحسمها بنفسه، وجعل لكل صاحب وجهـــة هـــو موليها نظير ما اختار من الجزاء، وما جعلت الحياة إلا لهذا النوع من الابـــتلاء

وهو المفصل في الآيــة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود:١١٨-١١٩).

وعلى هذا الأصل فليس على من أراد للناس الخير أن يحمل نفسه العنــت ويجعل من عدم اقتناع فرد أو جماعة بفكرته مادة لليأس وجلد الذات، فهنــاك ميادين يمكن خوضها لتحقيق نفس الغاية، وإذا كانت هــذه البيئــة أو تلــك كالأرض التي لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فعسى أن تجــد بذرتــه الأرض النافعة التي تثمر فتقر بها عينه ويسر بها خاطره، والنبي ﷺ بذر بذرة التوحيد في مكة فأنبتت في المدينة زرعــاً: ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ (الفتح:٢٩)، كما تذكر الآية الكريمة.

٥- استعمال أسلوب توجيه الأسئلة:

تتطلب الحاجة إلى تلوين الأساليب في الخطاب الدعوي الذي يأتي مــن ضمنه الانتقال من الخبر إلى الإنشاء، من إلقاء الأفكار وسرد الحقائق إلى إثارة الفكر بإلقاء الأسئلة، ومساعدة الآخر في إدارة عجلة فكره، فتشعره بالأهميــة من ناحية وتخلصه من ربقة التقليد غير الواعي من ناحية أخرى.

والأسئلة الدعوية القصيرة والموجزة تشبه فن الرسم، الذي يختزل الأفكار في صورة واحدة معبرة فتغني عن الكتب والمجلدات.

وطرح السؤال كأسلوب دعوي لا يخلو معه أن يكون المخاطــب عالمــاً بالجواب أو جاهلاً له، فإن كان جاهلاً له فقد كشف للطرفين واقــع العجــز

والإفلاس لدى المخاطب، وأنه بحاجة إلى أن يسمع لغيره وإلى ترك الجدال فيما ليس له به علم.

وإن كان عالماً به فإن لذلك فوائد أيضاً منها:

- أن السؤال يعطي المخالفين فرصة للعصف الذهني، والمرور بتجربة فكرية يستنطق بها عقولهم، ويعطيهم المجال لتقييم واقعهم بأنفسهم، وعندما يبحثون عن الإجابة سيكتشفون كم هي ضعيفة تلك الأرضية العقدية التي يقفون عليها؛ لأنها لا تملك الإجابات الكافية التي تستوجب احترامها، وبعد إسناد الدور إليهم في تقييم الوضع يأتي تعزيز الداعية أو المصلح لما يفترض أن يكون قد هزَّ من ثقتهم بمعتقداتهم، فيكمل هو ما بقي من أدلة البطلان على ضلالهم، كما نجد في هذا النموذج القرآني: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (الشعراء: ٧٠-٧٣).

إن في هذا الأسلوب إلى جانب ما ذكر إنصافاً لهم، حيث أصبحوا معه فاعلين في تحديد ما هو حق لا مجرد متفاعلين، وملقين لا مجرد متلقين، إذ كان ممكناً أن يتولى النبي ﷺ بنفسه تقديم التوصيف، وسرد الحيثيات، وإلقاء الأحكام بنفسه، ويختصر المسافة، غير أن ذلك سيكون شأناً خاصاً به، لأنه تقييم من طرف واحد، لم يكن لعقولهم فيه دور، ولا بالمقدمات التي قادته إلى النتائج، أو حتى بالوحي الذي خُصّ به من دونهم وإن بدا على حق.. إنها جبلة النفس التي تأبى أسلوب الإلغاء والإقصاء، والتخلي عن دوره للآخرين، وإنما تتجاوب عندما يتوفر واقع الاعتراف بها، وهذا من حيث المبدأ.

- إتاحة الفرصة للمتلقي للوصول إلى النتيجة باختياره سوف يقلل من فرص العودة إلى المعاندة والتكذيب؛ لأن ذلك سيعني تكذيبه لما توصل إليه تفكيره الحر، بينما سيكون في حل من تكذيب أي رسالة تم تقديمها له جاهزة، والعيب عندئذ سيكون فيمن قام بالتجربة بنفسه ودوَّن النتائج وقدمها للآخرين.

- توجيه السؤال بطريقة مهذبة سيشعر الطرف المتلقي بالأهمية، وأنه من الأهلية بحيث يعرف بنفسه مواضع الخير من الشر، وأنه يخاطَب كإنسان راشد لا يحتاج إلى وصاية أو من يفكر له ويحدد خياراته.

- توجيه السؤال يشعر المخاطب أنه في حالة أمان من أي تدليس أو غش يمارس عليه، ومن أنه بات مسوقاً إلى مجاهيل ليس له بها سابق علم ولا معرفة، وسيزول من الرسالة صفة (الملقي) كمسوق لأفكاره، وستصبح شأناً إنسانياً عاماً سيِّدها العقل وميزانها الفطرة السليمة.

- المتوقع في الغالب أن لا يجيب المجيب عن السؤال إلا بما يراه حقاً؛ لأنه سيكون معبراً عن سلامة تفكيره، حريصاً على أمانته العلمية، وعن مصداقيته أمام الآخرين، وهكذا لم يكن أمام كفار مكة من بد سوى الإجابة عن السؤال بالإقرار عند سؤال الله لهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..﴾ (الزمر:٣٨)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..﴾ (الزخرف:٨٧)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..﴾ (العنكبوت:٦٣).

- **طريقة توجيه السؤال:**

من الطرائق التي تساعد على فهم مضمون الرسالة توجيه الأسئلة المباشرة، وقد جاءت الكثير من الأسئلة كأسلوب تبليغي في القرآن الكريم، سواء منه ما دل على أصل معناه، ومنه ما جاء بطريق التوبيخ والتهكم والتهديد أو نحو ذلك، وما جاء على أصل معناه يكون المراد به طلب الفهم، ومعرفة المجهول.

إن إلقاء الرسالة عن طريق السؤال أوفق في بعض مقامات الدعوة من أن تأتي مقررات جاهزة وأوامر نهائية معلبة، ولنا أن نوضح ذلك على النحو التالي:

- **خروج السؤال عن أصل معناه:**

وقد يخرج الاستفهام عن أصل وضعه لمعان أخرى، تفهم من سياق الكلام ومما جاء في سياق الدعوة إلى الله ما يلي:

- **الإنكار**: ومعنى الاستفهام حينئذ معنى النفي وما بعده منفى، ولذلك تصحبه إلا، ويعطف عليه المنفي، ويكون معناه في الماضي معنى لم يكن، وفي المستقبل معنى لا يكون، ذلك قوله تعالىَ: ﴿.. أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ (هود:٢٨)، ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا..﴾ (الإسراء:٤٠) فيه إنكار الموقف، وإنكار الموقف تخطيء له وتسجيل موقف اعتراضي عليه، وهذا يؤدي إلى معاودة التفكير في صحته[1].

---

(١) انظر عبد العليم السيد فؤاد، أساليب الاستفهام في القرآن (القاهرة: مؤسسة دار الشعب) ص ١٣٣.

- **التوبيخ**: ويكون على فعل وقع، وكان الأولى ألا يقع، أو على ترك فعل ما كان ينبغي ألا يقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصافات:١٢٥)، ففيه تحقير للعقول، وتحقير للشيء الموبخ فيه، وهذا ينزل من قيمته ويجعله محل نقد ومراجعة.

- **التعجب**: كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨)، قريب مما سبق.

- **التهديد والوعيد**: كقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ (المرسلات:١٦)، وفيه وضع الإنسان في مواجهة مع حقائق الأمور، وتذكره بضعف قوته وقلة حيلته، وتلفت انتباهه إلى أن متعة اللحظة لا يجب أن تنسي صيرورة الأمور وتقلباتها.

- **التشويق والترغيب**: كما في قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف:١٠)، فيه مراعاة لما في الإنسان من غريزة حب المصلحة، وأن الدين مؤداه تحقيق ما يصبو إليه الإنسان من مكاسب نفعية والتي منها الفوز بنعيم الدنيا والآخرة، وأنه لا يأخذ من الإنسان إلا لكي يعطيه أضعاف ما أخذ منه، كما تجد ذلك في موضعه من الكتاب الكريم.

- **التحضيض** في قوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ...﴾ (التوبة:١٣)، إثارة الدافعية لدى المخاطب بموقف استنهاضي، وتنبيه العقل إلى لازم من لزوم الاستجابة.

- الأمر: كما في قولـه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١).

والعدول عن المباشرة في توجيه الأمر وإيراده في صورة الاستفهام فوق ما فيه من تعبير مؤدب فإنه يترك المخاطب بالخيار بين أن يفعل وألا يفعل، ومع أن النتيجة هو الطلب على وجه الإلزام إلا أن إشراك الإرادة الحرة هنا أمر بيِّن وفيه إغراء بالعمل والحث عليه.

- التقرير: كقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (التين: ٨)، وهو حملك المخاطب على أمر قد استقر عنده، والاستفهام في التقرير للنفي فإذا دخل على النفي صار الكلام موجباً، ولذا يعطف عليه الموجب الصريح ويعطف هو على الموجب الصريح.

«ولعل السر في جمال أسلوب الاستفهام هنا والعدول إليه عن أسلوب النفي هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي وهو أفضل من النفي ابتداء»(١).

---

(١) انظر دكتورة أحلام أم أنس، الاستفهام في القرآن الكريم، على الموقع www.alfaseeh.net، بتاريخ ٢٠١١/٢/٢٢م.

٦- بعض طرق الاستدلال:

أ- قياس الأشياء بنظائرها:

يفيد قياس الأشياء بعضها ببعض تقريب الفكرة؛ لأن القياس يعني قياس ما هو مجهول بما هو معلوم، فنأخذ من أحداث التاريخ وتجارب الحياة مادة للتمثيل، نفتح بها نوافذ جديدة على العقل والمنطق، جاء في كتاب التعريفات: «القياس: قولٌ مؤلفٌ من قضايا، إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر، كقولنا: العالم متغير وكل متغير حادث، فإنه قول مركب من قضيتين إذا سلمتا لزم عنهما لذاتهما العالم حادث، هذا عند المنطقيين»[1]؛ ولأهمية القياس كان مصدراً من مصادر التشريع، فبه يمكن تهديف الأعمال، ويضاف إليها قيمة التجربة وصدقها، وسنفقد بغياب القياس أحد بواعث الاستجابة وأحد دوافع العمل والإتقان.

والبشرية تمتلك عبر عصورها رصيداً من التجارب الإنسانية والخبرات المتراكمة، التي يمكن ربط بعضها ببعض، فنكتشف المزيد من القوانين والمسلمات العلمية أو الدينية.

وكثيراً ما كان النبي ﷺ يقيس الأشياء بنظائرها لتوضيح الفكرة وجلائها، جاء ذلك عبر مواقف كثيرة كما تدلنا عليه الأحاديث الآتية:

عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ:

---

(١) التعريفات، ص٢٣٢.

ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: **أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟** قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟** قَالَ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟** قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟** قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟** قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ**، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**.. فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ»[(١)].

فانظر كيف قادت هذه الأسئلة الرجل إلى الحق، وانتهى إلى أن نطق به على لسانه.

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ فَقال: إِنَّ امْرَأَتِي جَاءَتْ بِوَلَدٍ أَسْوَدَ، فقال: **هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟** قال: نَعَمْ. قال: **مَا أَلْوَانُهَا؟** قال: حُمْرٌ، قال: **فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟** قال: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قال: **فَأَنَّى تُرَاهُ؟** قال: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ. قال: **وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ**»[(٢)].

وهذا الحديث معجز في أسلوبه وفي مضمونه، أما المضمون فالعلم الحديث يؤكد حقيقة النزوع في الجينات الوراثية، وأما الأسلوب فقد نزل إلى

---

(١) الألباني، السلسلة الصحيحة، رقم (٣٧٠) وسنده صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم (٢٢٦٠) وصححه الألباني.

مفردات الواقع البسيطة في نظر الرجل، وأتى بمثال من الواقع وعن طريق السؤال الذي ساقه إلى تقرير الحقيقة بنفسه.

ومما ورد في الأحكام الشرعية والعبادات:

- عن ابن عباس، رضي الله عنهما «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: **نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ، أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا اَللَّهَ، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ**»[1].

- وقال ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَاب أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِه شَيْءٌ؟**»، قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**»[2].

عن أبي ذر، رضي الله عنه: «... **وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْه فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»[3].

ب- ضرب الأمثال:

تزدحم الحياة بالكثير من الأمثلة الصالحة للقياس منها الأمثلة التربوية والدعوية، التي جمعت بين الحكم الملقى والتشبيه المضروب والمثل السائر، وما أكثر النصوص التي اعتمدت على المخاطبين في تقرير الحكم، والوصول إلى النتيجة، دون تدخل لتكون أنموذجاً تربوياً يحتذى بها، كما سبق.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (١٧٥٤).

(٢) أخرجه البخاري، رقم (٥٠٥)؛ ومسلم رقم (٦٦٧)، وأخرجه غيرهما.

(٣) أخرجه مسلم، رقم (٧٢٠)، وأخرجه غيره.

عن النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ القَـائِم في حُدُودِ اللّه والْوَاقِعِ فيها كَمثل قَومٍ اسْتَهَموا على سَفِينَة، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أسْفلَهَا، فكان الذي في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَـرُّوا على مَنْ فَوقَهمْ، فقالوا: لو أنا خرَقْنا في نَصيبِنَا خَرقاً ولَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعاً، وإنْ أخذُوا على أيدِيهِمْ نَجَـوْا ونَجَوْا جَميعاً**»(١).

هذا المثل الدعوي التصويري يختزل فلسفة حياة الناس في كلمات موجزة، وقد ضرب لواحد من المبادئ العظيمة في الإسلام، وهو مبدأ الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، إن رسول الله ﷺ لم يركب البحر ولكنـه اختـار البحـر لإجراء التشبيه، كأنه لاشيء يشبه مسيرة الحياة الإنسانية كالسفينة تـسير في البحر، وفيها أنموذج من التباين الحياتي المصغر، أناس مستأثرون قصيرو النظـر، والبقية نظير الرقابة المجتمعية التي هي مصدر من مصادر الأخلاق، وضمانة من ضمانات الحفاظ على القواعد العامة، فإن كان موقفهم سلبياً ولم يأخذوا على أيدي الاتجاه المدفوع بالهوى، ولم يمنعوا حدوث المنكرات ولم يقيموا حـدود الشرع، وقع المجتمع كله، الأكثرية الصامتة، ضحية الأقلية المنحرفة، وإذا كانت الرقابة المجتمعية نشطة وفاعلة وأخذت على أيدي القلة المنحرفة كـان ذلـك ضماناً لاستمرار الحياة النقية للناس جميعاً.

وعن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال: رسول الله ﷺ «**مَثَلُ مَا بَعَثَني اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ**

(١) أخرجه البخاري والترمذي، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول، ٥٩٧/٣.

قَبِلَت الْمَاءَ فَأَنْبَتَت الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ.. وَفِي رِوَايَة: وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَيَّلَت الْمَاءَ»[1].

نلاحظ أن مفردات هذا المثل المضروب مستقاة من البيئة، وما يتصل بالتنوع الجيولوجي للأرض، ولا أجد أتم ولا أبدع من تشبيه (العلم) بـ(الغيث) وتشبيه (المتلقِّين) للعلم بـ (الأرض) التي هي الحاضن الأول للماء، وذلك لشدة تطابق وجه الشبه بين طرفي التشبيه، فالماء مصدر الحياة الأول للمعاني المادية: ﴿..وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والعلم مصدر الحياة الأول للمعاني النظرية والإيمانية: ﴿..أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ..﴾

(الأنعام:١٢٢)، وعلاقة الشبه بين أنواع الأرض التي هي المكون الأول للخلق، وبين أنواع الناس الثلاثة تأتي من جامع الصفات، فلا يخلو إما أن يكون المتلقي للعلم كالأرض رمزاً للنماء والخصب والثمرة، ومصدراً لحياة العقول والقلوب، أو عاملاً مساعداً على أداء هذا الدور، أو طرفاً سلبياً عديم النفع كالأرض الميتة، التي لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ.

وبالمحصلة فإن هذا التمثيل قد لخص في عبارات موجزة روح الإسلام وهدفه، فإذا كان الماء مصدر الحياة الأول في شقها المادي، فإن الإسلام مصدر

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٧٩)؛ ومسلم، (٢٢٨٢).

الحياة الأول في شقها الروحي، فهاهنا أعطت اللغة الدعوية صوراً واقعية كلية بين متماثلين يقرب كل طرف مجموع حقائق الطرف المقابل، وضرب الأمثلة طريقة أخرى لتجديد الخطاب وتنويعه، والعدول عن طريقة عرض المسلمات جافة، دون ربطها بالأمثلة المليئة بالحركة ونبض الحياة والتجارب الصادقة.

وقال المعلم الأول ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[1].

وقد جاء القرآن الكريم كذلك مليئاً بالأمثلة المضروبة، وجعل الله الأمثال طريقاً لإقامة الحجة على الناس، سواء ما جاء منها باللفظ الصريح أو غير الصريح: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٣)، ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ (الفرقان:٣٩)، وغير ذلك كثير[2].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٩٩٥) ومسلم رقم (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) من ذلك: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ° وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:٧٥-٧٦)، ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١١٧)، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٧١)، وعشرات الآيات من مثلها.

وهكذا ندرك أن إسقاط الأفكار في ضوء المعطيات الحياتية المطابقة يكون لها مصداقية التجربة، كما سبق، وتأخذ وقعها، وموقعها في نفوس المخاطبين، إذ يستطيعون أن يقيسوا بها علل الأحكام ومحددات الدين، فما يقوله الداعية له مصاديق في حياة الناس وليس من بناة أفكاره.

ج- مخاطبة العقل بالآيات المبثوثة:

أرسل الله رسله إلى الناس معززين لا بالقوة المادية لمصاولة الخلق في البدء، ولكن بالمؤيدات والأدلة الفكرية لمصاولة العقل، فكانوا وسائط لعرض الآيات والشواهد، والآيات القرآنية تعج بمفردات العقل والعلم والتدبر، وباختصار فإن هذه المفردات تُعَد بالمئات، كلها تخاطب العقل وتوجه نشاطه نحو الآيات المبثوثة للتفكر فيها، والسؤال عن خالقها، و لم يكن تكذيب الرسل إلا بتكذيب الآيات والمعجزات التي أيد الله بها أنبياءه.. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣)، وقد وردت﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ (٢٦ مرة)، ومعنى الآية: أي العلامة وصدق البرهان، أما مادة (آية، وآيات) فقد بلغت أكثر من (٣٥٠ مرة)، وهذا الكم في حديث الآيات دليل احترام الدين للعقل، والتعويل عليه في التفريق بين الخير والشر.

قال ابن حزم الأندلسي: «قوة العقل تعين النفس المميزة على نصر العدل، وعلى إيثار ما دلت عليه صحة الفهم، وعلى اعتقاد ذلك علماً، وعلى إظهاره باللسان وحركات الجسم فعلاً، وهذه القوة التي هي العقل تتأيد النفس الموفقة لطاعته على كراهية الحود عن الحق، وعلى رفض ما قاد إليه الجهل والشهوة

والغضب المولد للعصبية وحمية الجاهلية، فمن اتبع ما أناره له العقل الصحيح نجا وفاز، ومن عاج عنه هلك وربما أهلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:٣٧)» [1].

ولا أجد في المنتوج الفكري الإنساني كتاباً خاطب العقل ومشتقاته، بلغة العلم، والتفكير، والتأمل، وأولاه درجة من الاهتمام والرعاية كالقرآن الكريم، فقد رفض التقليد في المعتقدات، ورفض مجرد الظن والتخريص والأماني الكاذبة، وشدد على دور العقل والتأمل الواعي وتحرير الإرادة من غلبة الهوى وسوء التعصب المذموم.

وعلى هذا المساق الفكري كانت لغة الخطاب الدعوي للأنبياء تعتمد العقل كطرف أول للتلقي، ومستندة على فاعليته في تحديد اتجاهات العباد، والوصول منه إلى محطات الإيمان بالله والتسليم بوحدانيته، ولطالما افتقده الأنبياء في أقوامهم واستنهضوه في سياق مكابرة الملحدين وإصرارهم على ضلالهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء:٦٧)، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الطور:٣٢)، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ (سبأ:٤٦).

وفي منهاج الأنبياء حضور واضح لمفردات العقل، وتركيز على البعد التأملي الذي يرتفع بمستوى دور العقل من تسطيح النظرة للكون والحياة، ليصل إلى تجربة فكرية أعمق، فكانت هذه الصفوة المختارة أدلة خلاص

---

(١) ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، ط١ (القاهرة: دار الحديث) ص ٩.

للبشرية، ترمي إلى تحريرها من النظرة التقليدية للأشياء، إلى التأمل في الخلق، بدءاً بتركيب الإنسان وانتهاء بخلق الكون الواسع، فكل مصنوع يدل على الصانع، وتشهد على وجوده كل أركان الوجود، من الذرة وما دونها إلى المجرة وما فوقها، وفي أكثر من موضع في القرآن نجد أمامنا مفردات المعجم العلمي والنظر إلى المخلوقات تتكرر، تحريراً للعقل من إدارة العواطف وإرادة الأهواء، يقول الله تعالى على لسان نوح، عليه السلام: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (نوح:١٣-٢٠).

يلفت نبي الله نوح، عليه السلام، قومه إلى مفردات الخلق الكونية، وفيه مخاطبة للعقول أن تتصفح آيات هذا الكتاب الصامت، المزدحم بملايين النواميس التي تؤلف كلها حياة مستقرة، لو يرفع الله قانوناً واحداً من تلك القوانين المنظمة للحياة لانتهت قصة الوجود، وهل كثير على الإنسان أن يتساءل عن تلك اليد الخفية المسيرة لأطوار حياته بالحكمة والتدبير، ولنظام الكون بالقهر والتسخير.

وهكذا ينتقل نبي الله نوح في إدارة محاور الدعوة من الترغيب والترهيب في الآيات التي اشتملت على حديث الأمطار والأنهار والثمار، إلى محطة لفت الأنظار حول أبجديات التفكير في أوليات الخلق، من الذي خلق فقدر وملك

فدبر، إن العالم كله محكوم بنواميس لا يستطيع أحد أن يدعي أي دور له فيها، فالإنسان ليس له دخل فيما يحدث بداخله من حركة نشطة مسيرة بقوانين محكمة غاية الإحكام، وكل ما يجري ما هو إلا مجرد استجابة غريزية لأجهزة تعمل بداخله لا قدرة له على إدارتها، يأكل إن شعر بالجوع، ويشرب إن شعر بالظمأ، وينام إن حس بالحاجة للنوم، ولا يستطيع أن يرفض أو يعدل من هذه التركيبة، وهو مع ذلك لا يدري شيئاً عن هذه اليد التي تدير أجهزته الداخلية ناهيك عن التصميم الرباني للأرض وما حولها، وهي من الدقة والتعقيد بحيث يدخل في منظومتها المعقدة نَـفَـس الحوت في البحر؛ وهو إن أطلق نظره إلى معالم الوجود وجد هذه الأغلفة المحيطة به ووجد فيهن آيات مودعة لمصلحته، فمن سخرها، ومن جعلها وقفاً لصيرورة الحياة أن تندثر وتبيد؟

وفي نقلات سريعة وبعد أن لفت نظرهم إلى آفاق جديدة في التفكير، يعود ليربط جوانب العقيدة بما اشتهر به قوم نوح وهو الزراعة، «قال الحسن: كان قوم نوح يزرعون في الشهر مرتين»[1]، فتم استقاء حديث البعث من الثقافة التي عهدوها وهي مسألة الزراعة، فالإنسان كائن حي خاضع أيضاً لقانون البدء والإعادة ﴿.. كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ..﴾ (الأنبياء:١٠٤) تماماً كالزرع، يخرج الثمرة الميتة من الحي، وسيعود الإنسان نباتاً إنسانياً من تحت الثرى كما هي دورة الحياة النباتية ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ وهو البعث والإخراج من القبور، وهناك يأتي

---

(١) تفسير القرطبي، ٣٠٦/١٨.

الحساب والجزاء، ولا يخفى ما في هذه النقلات من تدرج محكم ليقيم بعالم الشهادة، أدلة عالم الغيب.

ولما كان قوم إبراهيم، عليه السلام، يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها في المنطقة التي هاجر إليها قبل منطقة حلب في الشام، فقد تعامل معهم أيضاً من منظومة الأفكار التي تحكمهم، فاستعمل نفس المفردات الفكرية واللغوية، وأعطاهم درساً عملياً في التوحيد من خلال لفت أنظارهم إلى حركة النجوم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٥-٧٩).

اتجه سيدنا إبراهيم، عليه السلام، إلى عبادة التأمل وإعمال العقل في نظام هذه الأجرام السيارة، وتوقف مع قومه عند مسألة (أفولها) وعودتها من جديد؛ إن لسان مقامه ينطق بالقول: إن هذا الغياب لا يستقيم مع إله يجب أن يكون موجوداً على الدوام، قائماً على صروف حياتي، التي تبدأ من خلجات النفس وما دون ذلك إلى ما لا يعدُّ ولا يحدُّ من العنايات الإلهية، التي لا دخل لي فيها، ثم إن هذا النغم الإيقاعي في أفول يعقبه ظهور، يشير إلى أن هذا الإله المقترح

يدار بقانون ثابت، والإله فوق القوانين، هو الذي يخلقها ليجبر بها ضعف مخلوقاته، فكيف يقيد الإله بها نفسه؟! وأين مزيته على بقية المخلوقات الخاضعة لنفس النظام؟! وبالنتيجة العقلية والمنطقية، ثمة رب عظيم هو الممسك بناموس الموجودات كلها، وهو المنظم لشؤونها، إن لم تدركونه ببصركم فستدركونه ببصيرتكم.

ولقد سمّى الله ذلك حجة وبيّنه لإبراهيم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:٨٣)، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ (محمد:١٤).

وفي عصر الاكتشافات تتضاعف أهمية الربط الدعوي بالآيات المبثوثة، فالعصر محكوم بسلطان العقل، لقد تضخم دوره كثيراً، ودخل في شؤون الحياة وتفاصيلها، عدا ميدان واحد لا يزال دور العقل فيه مغيباً، ذلك هو ميدان الاعتقاد، نعم هناك خلل في تحديد مسارات العقل، ففي حين وصل الإنسان بهذا المعطى الرباني إلى أدق عنصر في الكون، ومنه إلى أكبر مكوناته، لم يفعل الكثير لتسخيره في الوصول إلى الله، ولم يربط حصيلة مكتشفاته بالمبدع الأول على الطريقة الإبراهيمية، ولسوء الحظ أن جمهور علماء الغرب يتحاشون المرور بهذه الحقيقة، وكأن هناك حلفاً معقوداً بينهم وبين الشيطان أن لا يقروا لله بوجود!

لقد صار العقل اليوم السلاح الذي يحتكم إليه العلماء والمتنطعون على السواء، نظراً للمكانة التي انتهى إليها، وبسبب الفاعلية الإنسانية في تكريسه

لرفاهية البشرية والنهوض بواقعها، ومن مجمل رصيد الحضارة الإبداعية المعاصرة التي يرجع الفضل فيها للعقل، ندرك سر تركيز النص القرآني على العقل وحثه الأمم الجاهلة على إعماله رغم جهلها.

لقد كان ظهور الكثير من الحقائق العلمية في العصر الحديث بمثابة تحد فكري هائل أمام المسلمات التي رسخها رجال الدين و لم يكن مصدرها من الخالق عز وجل، وتسبب ذلك في عزل الكنيسة، وبسببها حدثت الردة البشرية الكبرى عن الدين في الغرب ممثلة (بالشيوعية الملحدة) وفي الوقت الذي كانت تلك المسلمات الدينية تتساقط كأوراق الخريف على مستوى الديانات المحرفة، جاء العلم ليقف منبهراً أمام الحقائق القرآنية، وكلما ظهرت حقيقة جديدة ضمت إلى مدونة الإعجاز العلمي في القرآن، فصار للمسلمين بسبب الاختراعات العلمية علم جديد، وهذا يزيدنا ثقة بما يملكه هذا الدين من مقومات التحدي، ويجعلنا ننصت بخشوع إلى نداء الآيات القرآنية وهي تحث على التأمل في الخلق لنصل منها إلى خالقها، ولنسهم كذلك في خدمة البشرية وتحقيق النفع لها، وما من شك أن الجهود التي تعمل في مجال الإعجاز العلمي هي جهود مقدرة ومطلوبة، وتستحق كامل التأييد والدعم.

الفهرس

وكــــلاء التــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــر	دار الثقافـــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس:٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب:١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب:٣٣٧١ –عمان١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧١٣٦٣–٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١– ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤– صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦– الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجمـــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦– الرباط
الجزائـــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلتـــرا	دار الرعايـــــة الإســـــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف:	٤٤٤٤٧٣٠٠
فاكس:	٤٤٤٤٧٠٢٢
برقياً:	الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:
www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح موضوعها لعام ٢٠١٠م

«الفروض الكفائية سبيل التنمية المستدامة»

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٢م

- **مدخل:**

تعريف الفروض لغة وشرعاً؛ أبعاد القيام بالفروض المسقط للإثم عن الأمة؛ دور الفروض الكفائية في الاضطلاع بأعباء الاستخلاف الإنساني.

- **المحاور:**

* **كيفية إحياء فروض الكفاية:** أسباب غياب الفروض الكفائية في الحياة الإسلامية؛ الفروض العينية والفروض الكفائية؛ الفروض الكفائية سبيل التنمية المستدامة وتحقيق الشهود الحضاري؛ علاقة الفروض الكفائية بالنفرة لتوفير التخصصات المعرفية والعلمية.
* **الفروض الكفائية سبيل الاكتفاء الذاتي:** الفهم الأعوج والتدين المنقوص أدى إلى التخلف والتراجع الحضاري؛ انكماش مفهوم الفروض الكفائية أدى إلى انتشار ذهنية الإرجاء والانسحاب من الحياة؛ عدم الاضطلاع بالفروض الكفائية أدى إلى فراغ استدعى (الآخر).
* **إحياء الفروض الكفائية سبيل إلى إحياء مؤسسات المجتمع:** تعريف المجتمع؛ الدولة؛ الأمة؛ المجتمع المدني؛ الفروض الكفائية تنمية للحس الاجتماعي واستشعار المسؤولية التضامنية؛ الفروض الكفائية وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية.
* **الأسس والأبعاد النفسية والفكرية للفروض الكفائية:** علاقة الفروض الكفائية بتنوع القدرات والقابليات الإنسانية وتقسيم العمل؛ أعباء الاستخلاف وإقامة العمران مرهونة بالجهد الجماعي المتنوع.
* **غياب فقه الأولويات:** القراءة الخاطئة لاستحقاقات الحياة ومقاصد الدين؛ تراجع الدين عن حركة الحياة عطل الفهوم الصحيحة للفروض الكفائية واستشعار الحاجة إليها؛ علاقة الفروض الكفائية بالرؤية والتخطيط الاستراتيجي للنهوض.

* **الرؤية المستقبلية لكيفية إحياء الفروض الكفائية:** تحويل الفروض الكفائية إلى محركات اجتماعية ومحرضات نفسية لأداء الرسالة والاضطلاع بالمسؤولية؛ الفروض الكفائية عندما تتحول إلى فروض عينية؛ التخصصات العلمية السبيل الوحيد للنهوض واستئناف الحياة الإسلامية؛ الفروض الكفائية وإعادة بناء أهل الحل والعقد، في ضوء القضايا المطروحة.

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠،٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار: هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠ (+٩٧٤) – فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢